مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية

أ.د. منى أبو الفضل   أ.د. طه جابر العلواني

الإهداء

إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الَّذِي جاء للبشريّة بالشرعة والمنهاج، فأقام الشرعة، وأرسى دعائم المنهاج، وقدّم الميزان وتلا الكتاب، وعلّم البشريّة آياته وزكاهم بها، وعلّم الإنسانيّة الحكمة، ولم يغادر هذه الحياة الدنيا إلاّ بعد أن ترك البشريّة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، ثمّ إلى كل أولئك الباحثين عن منهاج يعصم أذهانهم عن الخطأ وينير السبيل ويهدى للّتي هِيَ أقوم في المنهاج والمنهجيّة وسائر شئون وشجون الحياة، نقدّم هذا الكتاب.

المؤلّفان

منى وطه

شكر

يشكر المؤلفان شركة قرطبة للبحوث والدراسات والتنمية البشرية، على المساعدة التي قدمها فريق عملها في أعمال الصف والتدقيق وتخريج الآيات والآحاديث والإعداد الفنّي للنشر، والمتابعة والإشراف، والّتي لولاها لماتمّ إخراج الكتاب بهذا الشكل الجميل.

كما يشكران دارالسّلام التي قبلت أن تتعاون في طبع الكتاب في وقت قياسي.

المؤلفان

المقدّمة

بين أيدينا ثلاثة مفاهيم هي مفاهيم محوريَّة لا يمكن للباحث في «**المنهج والمنهجية**» أن يتجاوزها وهو يمارس أيّ عمل منهجيّ كنّا أم الفضل د. مني يرحمها الله تعالى وأنا قد شرعنا في إعداد قائمة بالمفاهيم المحوريَّة التي رأينا أم الفضل وأنا ضرورة إعدادها لدراسة الباحثين في المنهج والمنهجيَّة، وقد رأيت في بادئ الأمر وضعها بصفة ملاحق لكتابنا المشترك: «**نحو إعادة بناء علوم الأمَّة: الاجتماعيَّة والشرعيّة**» «**مراجعات منهاجيَّة وتاريخيّة**».

ثم بدا لي أن في ذلك ظلمًا لهذه المفاهيم المحوريّة، وللجهد الذي بذل في صياغتها فآثرت أن أجعلها كتابًا مستقلا في بنائه، وإن كان مما يستدعيه كتابنا الأول. ولدي أمل كبير في أن أواصل العمل في بقيَّة المفاهيم المحوريَّة، وأرجو الله -تبارك وتعالى- أن ينسأ في الأجل ويهيئ من يشد الأزر ويعين على استكمالها، ومواصلة العمل فيها. إن شاء الله تعالى.

وهذه المفاهيم التي سنقدمها في هذه الحلقة هي:

١- مفهوم الواقع.

٢- مفهوم النصّ

٣- مفهوم الزمن.

المفهوم الأول

مؤشرات نحو إدراك لمفهوم الواقع

ومنهاجيّة لدراسته والفقه فيه

مقدمة فقه الواقع[1]

أكّد علماؤنا المتقدمون أنَّ للأشياء وجودًا ذهنيّا ووجودًا لغويًّا ووجــودًا خارجيًّـــا، والواقع الخارجيّ يكون -أحيانًا- على سبيل الواقع ونفس الأمر، ويكون أحيانًـــا واقعًـــا في تصوراتنا وأذهاننا، فنحسبه واقعًا وما هو بواقع إلاّ في أذهاننا أو مخيّلاتنا **[وَالَّذِينَ كَفَــرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ]** (النور:٣٩) وقد ينظر الإنسان -منّا- بعينيه إلى شبح من بعيد ويظنُّه شجرة فإذا نظر إليه من موقعٍ أو آخر أو أقرب ظنّه حيوانًا، وقد ينتقل مـــن ظن إلى آخر أو وهمٍ إلى آخر حتّى يصل إليه ليكتشف أنّه حجر. ومن هنا نجـــد أنّ الواقـــع ونفس الأمر شيء واحد هو أنّه حجر. ومن هنا نجد أنّ المكان مكان الشيء ومكاننـــا منـــه وزاوية النظر والرؤية والأفكار الدائرة في أذهاننا وثقافتنا، بل إرادتنا -أحيانًا- والزمن الّـــذي نحن فيه والجو والمناخ ونظم الحياة كلّها ذات أثر في صياغة الواقع، والتأثير في نظرنـــا إليـــه وفهمنا له. وأحيانًا تتعارض مدركات حواسّنا مع مدركات بصائرنا وأذهاننا فيتغلّب بعضها على بعض بحسب نوع آخر من المؤثّرات **[وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا]** (الفرقان: ٤٠) ولذلك فإنّ ما نقلناه عـــن بعض المتقدّمين في حاجة إلى نوعٍ من التفصيل والشرح ليكون دقيقًا، فالوجود الذهنيّ قد لا ينسجم مع الوجود الخارجيّ، والوجود اللغويّ قد لا يعبّر بالدقّة اللازمـــة عـــن أيٍّ مـــن

---

[1] ١) دراسة الواقع في ضوء التاريخ والاستشراف المستقبليّ.

٢) تحديد جميع خصائص ومكوّنات هذا الواقع بجميع عناصره.

٣) تحليل وتفكيك تلك الخصائص والمكوّنات ودراستها في تلك الحالة ثم إعادة تركيبها.

٤) بعد الخروج بفكرة واضحة ودقيقة عن ذلك الواقع يجرى البحث في مستويات التغيير المطلوبة ووسائلها ومناهجها.

٥) ثم يحدّد للفرد أو المجموعة دوره أو دورها في ظل ذلك وفي ضوء الإمكانات المتوفرة لدى الفرد ولدى المجموع.

لتحقيق الإرادة والدافعيّة والفاعليّة لدى الأمّة.

وبعث القدرات العقليّة والنفسية للأمة وتحديد مصادر الشرعيّة النفسيّة العقيديّة وتصحيح الجانب العبادي أو التعبدي.

الوجودين: الذهنيّ والخارجيّ. ولذلك كان فهم الواقع بكل مركباته وعلاقاته والمؤثّرات المختلفة فيه ضروريًّا للمجتهد والمفكّر والقاضي والفقيه والمفتي والمصلح وكل معنيٍّ بالشأن العام سواء أكان عمله ممّا ينحصر بعمليّات احتواء الواقع النسبيّ بالمطلق القرآنيّ.

والواقع -من حيث الاستعمال القرآنيّ- حمّل معنى السقوط والثبوت، فالساقط واقعٌ صار في متناول الحواس، وهو ثابتٌ أيضًا فيمكن إدراكه بالحواس دون أن يتشوّش على ذلك الإدراك أو تربكه الحركة وعدم الثبوت، وفي التتريل: **[فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا]** (الحج:٣٦) أي: سقطت أو وقعت إلى الأرض. ولعلّ هذا يضيف بعدًا آخر إلى المعنى قد يبرز عندما نتدبر نحو قوله تعالى: **[وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ]** (النمل:٨١) فالقول الإلهيّ إذا وقع على قومٍ فلا رادّ له ووجب تحقق مضمونه ومعناه، فهو قولٌ واجب الثبوت والتحقّق.

والواقعة لا تقال إلاّ في الشدّة والمكروه. وأكثر ما جاء لفظ وقع في العذاب والشدائد نحو: **[إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ{١}لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ]** (الواقعة:١-٢) **[سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ]** (المعارج:١) **[وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا]** (النمل:٨٥) واستعملت في الأمر الحسن في مثل قوله تعالى: **[فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا]** (النساء:١٠٠) والأمر عندما يسقط ويصبح في متناول حواس الناس ويثبت يصبح واقعًا **[أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ]** (يونس:٥١) ولثبوته فقد أصبح «**حقًّا وثابتًا وحقيقةً وواقعًا**» وهنا يلقى نحو قوله تعالى: **[كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ]** (يونس:١٠٣) ظلالاً ذات أبعاد أخرى على مفهوم الواقع فالوعد الإلهيّ بالنّصر والنجاة يحوله بمجرد صدوره عنه -عزّ وجّل- إلى حق ثابت وحقيقة كأنّها ملموسة محسوسة واقعة مدركة، لأنّه جلّ شأنه لا يخلف الميعاد. هنا يصبح الواقع إضافةً إلى العناصر الّتي أشرنا إليها من زمان ومكان وفكر وثقافات وعلاقات بكل أنواعها: حاصل جدل بين الغيب والطبيعة أو الكون والإنسان.

ومن رحمة الله -تبارك وتعالى- أنه لا يؤاخذ الإنسان على وجود المنهي عنه في ذهنه إنَّ وجد حتى لو بلغ مستوى «**النية والعزم**» حتى يوجده المكلف في الواقع، فحسابه وثوابه وعقابه على وجود الأشياء في الواقع، ومن هنا فإن العلماء يؤكدون أن الفقيه الكامل ليس ذلك الذي يفقه النص وحده ففقه النص نصف الفقه، والنصف الآخر يكمن في «**فقه**

الواقع» بكل جوانبه. وفي عصورنا هذه تأكد الاهتمام بالواقع وضرورة فقهه لا في مجال الأحكام وحدها؛ بل في سائر المجالات السياسيّة والاجتماعيّة إضافة إلى الشريعة والقانون؛ بل كاد «**فقه الواقع**» أن يتحول إلى علم كامل يبحث في الشئون الفكريّة والثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وهو في هذه الحالة يصبح علمًا تحتاجه سائر الجهات التي لها علاقة بالقرارات وصناعتها لدى الأمم والشعوب. وللإسلام نصيب وافر في تحديد معاني الواقع وأهميته، والجوانب التي تندرج تحتها وأثرها في سائر مناحي الحياة، وقد يكون أولى الناس بأن يجعلوا من «**فقه الواقع**» علمًا مستقلا أو جزءًا لا يتجزأ من علم «**أصول الفقه**» في بنائه الجديد. «**ففقه الواقع**» مثل مقاصد الشريعة والمقاصد القرآنيّة العليا الحاكمة، عليه يتوقف الفهم الدقيق والإدراك العميق لمرامي النصوص وأهدافها وكيفيّة بناء الأمم بها. فذلك كلّه لا يمكن الخوض فيه دون فقه في الواقع، فهو ضروريّ لأي تنظيم أو تخطيط أو تشريع أو تفعيل في الحياة أو تأويل، وبدون ذلك فإن الأمور تضطرب وتتداخل ويغيب فقه الأولويّات والقدرة على التمييز بين مَا هو أصل ومَا هو فرع وما هو ضروريّ وما هو كماليٌّ. والبشريّة اليوم والمسلمون في مقدمتها أحوج مَا يكونون إلى «**فقه الواقع**» وفهمه، هذا الواقع الذي يقوده الشيطان وعباد العجل يعزز هؤلاء وأولئك الأجهزة العملاقة التي تسيطر على تربية الناس وتوجيههم بإعلام مهما قيل عنه وفيه فإنه يذكرنا «**بالخوار**» الذي كان يصدر عن العجل الذهبيّ، وسواء سموا ذلك حوار حضارات أو عولمة أو مَا شاءوا، فإنه يبقى «**خوارًا**» ولو تغيّر مصدر صدوره، كان يصدر عن عجل ذهبيّ فارغ، وصار يصدر عن أجهزة إعلامية عملاقة «**فالخوار**» «**خوار**» وإن تغيرت وسائله. إنَّ التجديد والاجتهاد وإعادة بناء الأمّة وجمع كلمتها على كلمة سواء وردها للاعتصام بحبل الله المتين واللجوء إلى الله تعالى في التأليف بين قلوبها، ذلك كلّه يتوقف على فقه للواقع وفهم دقيق له بجوانبه كلها، وأمّتنا وهي في هذه الحالة مغيَّبة عن الواقع كله؛ واقعها الخاص، وواقع كيانها الاجتماعيّ ومحيطها الجغرافي، كما هي مغيبة تمامًا عن الواقع العالميّ، وبالتالي فإن «**فقه الواقع**» مثل فقه المقاصد والأولويّات ينبغي أن يحتل في بحوث ودراسات أبناء الأمّة وعلمائها موقع الصدارة لإعادة بناء وعي الأمّة بواقعها، فلولا غياب الوعي بالواقع لما انشغل مثقفو الأمّة عن معالي الأمور بسفسافها، وعن الضروريّات بالكماليّات وما إليها، ولما كرسوا فرقة الأمّة وتشتتها بذلك

التركيز المقيت على الجوانب الإقليمية والخاصّة على طريقة آخر خليفة عباسيّ مغفَّل، كـــان يردد كلما جاءته الأخبار بتقدم المغول باتجاه بغداد. وتغلغلهم في العالم الإســـلاميّ «**بغـــداد تكفيني؛ ولا يستكثروها عليَّ إنَّ أنا تركت لهم الأطراف**». والواقع اليوم جعل من كـــثير من حكام بلاد المسلمين نسخة محدثَّة لذلك الخليفة المغفل الذي توهم أن حياته وحياة سلطانه تقوم على مسالمة أعدائه وتجميد نخوته والتنازل عن هُويته.

لماذا يجب أن نفقه واقع الأمة؟

«**فقه الواقع**» ضروريّ لأيّ تخطيط، وإلا ضاع الهدف، لعـــدم تحديـــد المنطلقـــات والغايات بشكل دقيق.

و«**فقه الواقع**» ضروريّ لأيّ تشريع أو تنـــزيل، وإلا وُضع الشيء في غير موضعه، ووسد الأمر إلى غير أهله. وما بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، في أقوامهم، إلا لتصحيح مسار واقع منحرف.

وللواقع أثره في تتابع الرسالات وكثرة الأنبياء والمرسلين ثم المـــصلحين وصـــولا إلى رسالة خاتم النبيين -صلى الله عليه وآله وسلم.

وبما أن البشريَّة اليوم تقف على حافة انهيار؛ يَدُعُّهَا عُبَّادُ العِجْلِ دَعًّـــا إلى الـــدمار، وتسوقها سياسات قادة العولمة سوقا إلى الهلاك، بأذرعها العالميّة العديدة، فقد أحكم الدجال قبضته عليها، فخنق الأنفاس، ومص دماء الناس. إنَّ أمتنا اليوم قد شاخت ووهنـــت، بمـــا كسبت وبما أهملت. ولذلك فلا بد من العمل على تجديد فكرها وعقيدتها وصـــلتها بربهـــا وبالخلق، لقد صار ذلك فريضة شرعيّة، وضرورة حضاريّة.

ولا سبيل لتحقيق شيء من ذلك بغير فقه واقع الأمة؛ ذلك بأن التجديد يتطلب: فقهًا في الواقع وفي وسائل التجديد، وكيان الأمّة التي يجب أن تكون ميدان التجديد، ومعرفـــة عميقة بخصائصها الذاتيّة ومكونات واقعها والكشف عن منهجيّة القرآن المعرفيّة لقيـــادة وتوجيه عمليّات «**التجديد**».

وكل ذلك مرتبط بالواقع بنوع من الارتباط.

نحو تصور فقه الواقع:

«**فقه الواقع**» مركب إضافيّ مثل «**أصول الفقه**» و«**أصول الدين**»، وهذا النوع من المركبات الإضافيَّة حين نريد معرفتها بدقة فلا بد من فك حالة الإضافة وتعريف كل كلمة منها -وحدها- ثم تعريفها بعد التركيب باعتبارها علمًا على مجموعة قواعد أو مسائل أو ملكة تقوم بالأشخاص الملمّين بتلك المسائل. و«**فقه الواقع**» ليس علمًا مخصوصًا؛ بل هو علم يتعلق بجميع العلوم والمعارف تقريبًا، سواء أكانت علومًا طبيعيَّة أو إنسانيّة أو اجتماعيَّة أو سلوكيَّة؛ إذ مَا من علم من هذه العلوم والمعارف إلا وله تعلق مّا بالواقع، أو أثر في صياغة جانب من جوانبه، أو تفسيره أو وصفه.

ومع ذلك فإنّ هذا المركب الإضافيّ «**فقه الواقع**» يمكن مقاربة تعريفه بتعريف جزئيّه «**فقه**» و«**الواقع**». أمّا الفقه فله مفهومه القرآنيّ حيث ورد التتريل بمادته في آيات عديدة، منها قوله تعالى: **[لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ]** (التوبة:١٢٢) وقوله -جل شأنه: **[فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا]** (النساء:٧٨) فأسلوب القرآن المجيد في إيراد هذا المفهوم ينبه إلى أنّه يراد به مطلق الفهم أو القدرة على الفهم، أو فهم الأمور الدقيقة، إذ إنَّ الإنسان مَا كان إنسانا إلا لما أودعه الله فيه من استعدادات للفهم والإدراك وقد يضاف إلى الدين كما في آية التوبة، أو إلى غيره، ومن ذلك إضافته إلى «**الواقع**». و«**الفقه**» أخصّ من «**العلم**»؛ لأنّ «**الفقه**» فهم يتوصل إليه بعلم شاهد إلى مَا هو غائب وقد شاع إطلاقه على «**العلم بالأحكام الشرعيّة العمليّة المكتسبة من الأدلة التفصيليّة**». حتى صار بمثابة «**حقيقة عرفيّة**» فيها.

وأمّا المضاف إليه وهو «**الواقع**»: فهو من «**وقع**» وقد ورد هذا الفعل «**وقع**» وبعض مشتقاته في القرآن المجيد وأريد به ثبوت الشيء وسقوطه ووجوبه: قال تعالى: **[إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ {١} لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ]** (الواقعة ١-٢) **[فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ]** (الحاقة:١٥) وقال جل شأنه: **[وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ]** (النمل:٨٢)، وقال عز وجل: **[وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ]** (النمل:٨٥) وقال تبارك اسمه: **[أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ]** (يونس:٥١) فالأمر الواقع هو ذلك الذي حدث وثبت وسقط ووجب، فهي تعبّر عما حدث وصار ثابتًا لا يمكن

إنكاره أو تجاهله أو المماراة فيه. وهذا قد يكون في شأن دينيّ أو دنيويّ تاريخيّ أو معاصر، حسِّيّ أو معنويّ، سياسيّ أو اقتصاديّ أو اجتماعيّ أو ثقافيّ، إقليمي أو عالميّ.

والأمّة المسلمة اليوم لها واقع بوصفها أمّة، وواقع لكل إقليم أو شعب، وواقع عالميّ لا تملك الانفصال عنه أو الانفكاك عن مؤثراته و«**فقه واقع الأمة**» يقتضي فقهًا في كل جانب من هذه الجوانب. وهذا الفقه الأكبر أو الموسع هو مَا ينبغي ملاحظته في سائر الأمور العامّة سواء أكانت على المستوى النظريّ والفكري أو المستوى العلميّ أو مستوى الفتيا أو الممارسات الفرديّة والجماعيّة.

إنَّ دراسة «**الواقع**» وفقهه أمران في غاية الأهميّة فليس هناك معالجة لأيَّة أزمة في الحاضر، وتخطيط لمستقبل أو بناء أو تنمية في المستقبل يمكن أن يكتمل ويؤدي دوره، ويحقق ثماره دون دراسة «**الواقع وفقهه**» وهذه الدراسة، وذلك الفقه لا يمكن أن يتحقق شيء منهما بدون منهاجيّة ضابطة تأخذ بنظر الاعتبار خصائص الأمّة الذاتيّة وأسس ومنطلقات التكوين، التي بها تبرز أهميّة دراسة «**فقه الواقع**» ولا بد لدراسة «**فقه الواقع**» من «**منهاجيّة دقيقة**» تقوم على دعائم تحمل طاقات تحليلية وتفسيرية سليمة ومتينة ولذلك فقد اخترنا أن ننبه إلى منهاجيّة تتبنّى منظور التجدُّد الحضاريّ في التعامل مع الواقع التاريخيّ والسياسيّ، للإجابة على سؤال لماذا ندرس الواقع؟ ولماذا نحتاج في دراستنا له إلى منهاجيّة تحمل مَا ذكرنا من مواصفات؟ إنَّ الإجابة لا بد أن تنظر في شقين:

أولا: إنّه من حيث دراسات الواقع السياسيّ فهي لا تنقصنا، ولكن الذي ينقصنا هو دراسة تكون ذات جدوى ونفع لنا نحن باعتبارنا مسلمين معاصرين يهمنا أن ندرك المؤثرات والمكونات التي من خلالها نتفاعل مع زماننا في مواقعنا المختلفة لنستطيع أن نشكل مستقبلنا في الشكل الذي ينسجم مع معتقداتنا وتاريخنا وحضارتنا وأهدافنا، والدور المرسوم لأمتنا في هذه الحياة. أمّا الدراسات التي تتوافر لدينا في الوقت الحاضر فهي دراسات كثيرة وكثير منها ذو جدوى ونفع ولكنّه محدود بالنسبة لنا إذا مَا قيست تلك الدراسات إلى أسئلة من نحن وماذا نريد وما الذي نسعى لتحقيقه؟ لأنّ الدراسات التي أشرنا لكثرتها دراسات درست وأعدت بالوكالة عنا وفي حالة غيابنا فهي دراسات قام بها غيرنا باعتباره ذاتا وباعتبارنا موضوعًا وربما شارك بعض أبنائنا فيها، ولكن لا نستطيع أن نعتبر أنفسنا مؤسّسين لها،

فالدراسات المتاحة والتي تهمنا بوصفنا مسلمين كثيرا مَا تستهدفنا ولا نستهدفها، لسبب بسيط، هو أنَّ كل دراسة لا بد أن تنطلق من فرضيّات لتحقق أهدافا؛ وأصحاب المنطلقات والأهداف ليسوا منا ولا ينتمون إلى أمتنا ولا إلى كياننا الاجتماعيّ ولا إلى بيئتنا الحضاريّة وإن حملوا أسماء عرفناها، وبعضها كاد ينتمي إلينا من حيث الدم لكنه لا ينتمي إلينا من حيث الثقافة والفكر فلا يعني ذلك أنّها تقترن بمنطلقات وأهداف تنبع من هويتنا، وتتكون وتعبر عن الخصائص الذاتيّة والرؤى والمصالح الحضاريّة لأمتنا وحضارتها، فالعبرة ليست بالأسماء التي تُحمل ولكنّها بالقلوب والألباب والعقول التي تكون فيها والقوالب التي تُسبك عبر ذلك التكوين. أمّا الشق الثاني من الإجابة فينصب على حقيقة كون الإسلام الحركيّ كثيرًا مَا يغيب عن ساحة «**الواقع**» سواء أكان ذلك لاعتبارات عمليّة تقدم قضايا الإسلام «**الحركيّ**» على «**الفكريّ**» في الواقع، أم لأسباب ترجع لغياب الرؤية الحضاريّة الكاملة عن العقل المسلم المعاصر واصطباغه بنظرة جامدة للتراث تعوق التعامل مع الواقع. إنَّ جل مَا في مشروع دراسة «**فقه الواقع**» أن يكون محاولة لرأب الصدع بين «**الفكر والحركة**» وتجاوز هذا المأزق الذي يجعل الرأي المسلم المستنير مغيّبًا عن الواقع وفهم الواقع وبالتالي تبقى محاولة التعامل الرشيد معه حكرا على غير أصحابه الذين يدركون الواقع ويفقهونه.

فكيف نقرّب «**الواقع**» للعقل المسلم المستنير؟ وكيف نجعل الطاقة الحيويَّة الذهنيّة والفكريّة والثقافيّة طاقة مشعَّة في هذا الواقع وفاعلة فيه؟ تلك هي المعادلة التي أرى أن دراسات «**فقه الواقع**» كمشاريع أو أفكار لا بد أن تقوم عليها؛ ولذلك فإنَّ أيّ مشروع إسلاميّ لدراسة الواقع يعتمد في نجاحه على تبنّي نظرة شاملة تدمج المقتربات الاستقرائيّة التاريخيّة بالمقتربات العقليّة الاستنباطيّة، وتجمع بين البحث الميدانيّ واستقراء الأحداث والوقائع وبين المداخل التحليليَّة الفكريّة والنظريّة في التعامل مع النتائج ومع الظواهر التي تتناولها. ولا يخفى أن حاجات كل مقترب وشروطه لا تتحقق بنفس الدرجة لدى الدارسين كافة، لأنّ هناك تفاوتًا في التكوين والمهارات والاستعدادات، الأمر الذي يجعل العمل الجماعيّ في مشروع لدراسة الواقع ضروريّا لإمكان الاستفادة من كافة الطاقات والخلفيات والاستعدادات وجعلها من الأمور المتاحة لبناء مشروع لدراسة «**فقه الواقع**»، ومعنى ذلك أنّه لا بد من الإطار الذي يوفر شروط العمل، سواء أكان عمل فريق بحثي متكامل أو عمل

فريق في مجاله ولا بد أن ينعكس هذا الإطار على صيغة العمل الجماعيّ أو على المستوى الموضوعيّ في أطروحات وفرضيّات تتناول الموضوع ولا بد أن تتخلل أي عمل جدي جماعيًا أو فرديًا كان. وهناك بعض الأسئلة التي يجب مراجعتها حينما نقدم على دراسة «**فقه الواقع**» بصفة عامّة وعلى بناء سياسة ذات جدوى وصلاحية خاصة.

١- هل هناك إدراك واعٍ لشروط العمل الفكري عامّة؟

٢- يجب إدراك حقيقة مفادها أنَّ بناء علم -أي علم- لا يتم في فراغ ثقافيّ أو فكري أو اجتماعيّ أو سياسيّ فلا بد من توفير شروط ذلك كله.

٣- أخذ موقف إزاء مسألة «**حيادية العلم وموضوعيّته**» بمعنى آخر لا بد أن يكون لنا وجهة نظر ونحن نعيد بناء صرح علومنا الإنسانيّة والاجتماعيّة المعاصرة بوصفنا مسلمين، إنّه قد غاب عنا حقيقة ودلالة الإسلام في حياتنا الفكريّة والعقليّة واختلط الأمر علينا في حدود دلالة العلم والحداثة عامّة تحت وطأة ظروف تاريخيّة معينة وعلينا أن ندرك ذلك ونعيد النظر في ظروف تكوين الفكر المعاصر في عالم المسلمين ونحن نعمل على تصحيح القراءة وإعادة بناء للخارطة الفكريّة الجديدة.

٤- تحديد علاقتنا بالآخر وإدراك إمكانيات الاستفادة منه وحدودها والتمييز بين الانغلاق والتحوط، والانفتاح والانفلات في علاقتنا به وبما ينتجه.

٥- إعادة بناء الجسور في شبكاتنا الثقافيّة والحضاريّة على نحو يستهدف استعادة الحيويَّة الحضاريّة لأمتنا المسلمة.

هذه بعض الأفكار التي تلوح لنا عند النظر في الخطط والمشروعات الفكريّة الرائدة التي يحاولها بعض أبنائنا وبعض المنتمين لهذا الكيان الحضاريّ الإسلاميّ. أتمنى أن تبنى مؤسّسة أو أكثر لمشروع دراسة «**فقه الواقع**» وأن ينجح العمل على هذا وأن يتكامل لا من حيث الأعمال والأوراق الجديدة التي يسهر الباحثون عليها فقط ولكن من حيث الدلالة التكوينيّة

والتربويّة والفكريّة لمثل هذا التوجه في إعداد جيل جديد من الباحثين المسلمين الذين يمثّلون طليعة الركب الحضاريّ المنشود الذي يكون من شأنه أن يضع لبنة وأداة في التمكّين للنهضة الحضاريّة الإسلاميّة في عالم الغد. ويسعدنا أن نشارك في تقديم شيء في سبيل تمهيد وتوضيح الخط المنهجيّ الذي يقوم هذا الجيل ببلورته وتطويره من خلال تراكم أعمال جديدة تتسم بالجدية والجدة في هذا السبيل وأحيل بوجه خاص على فكرتين وفقني الله لهما منذ قرابة عقد من الزمن وطرحتهما في ساحة النقد والتدوين، وإعادة النظر في تعاملنا مع واقع نظمنا العربيّة المعاصرة وما كان لتلك الأفكار المتواضعة أن تشق طريقها في أفق العقل المسلم المعاصر لولا استعداده لتقبلها وإدراك مغزاها وجدواها وتهيؤهه للتفاعل معها في مسار اختيار أو اختبار ذلك المفترض والجدوى التطبيقيّة والاختيار والتطوير.

والفكرة الأولى تتعلق «**بالمنظور الاجتماعيّ الحضاريّ**» باعتباره منظورا أصيلا يمكن من خلاله إعادة الاعتبار للحضارة الإسلاميّة باعتبارها حقيقة تاريخيّة وواقعا، وباعتبارها قابلة للتجدُّد ولاستعادة الفاعليّة مع استمرار قابليّة الصياغة والتحقق فيها، والمنظور الاجتماعيّ الحضاريّ خلافا للمداخل والمناهج المتداولة في الدراسات الاجتماعيّة والتاريخيّة من شأنه إعلاء الأبعاد المعنوية والقيميّة وإعلاء دور الفعل الإنسانيّ والمسئوليّة البشريَّة دونما إغفال لاعتبارات بنائيّة ووظيفية وحيوية أخرى، وذلك أن المنظور الاجتماعيّ الحضاريّ مع أنّه يستقي أصوله من استقراء الخبرة الحضاريّة للإنسان التاريخيّ مسترشدا بواقع النموذج للواقع الإنسانيّ منذ بزوغ بشائر تأسيس أمّة النبي الأمي –صلى الله عليه وآله وسلّم- الأولى لا يستغرب أن يكون منظورا مستقى من الخبرة الحضاريّة الإسلاميّة، منظورا يتسم بالعالميّة قدر مَا يكون منظورا يتفق ودراسة الواقع العربيّ المعاصر بوجه خاص، فالأمّة في الإسلام قد استوعبت عمليّا وثقافيّا عقيدةً وفكرا وروحا شعوبا وقبائل شتى لم تقتصر على جنس أو عنصر أو تاريخ أو لغة أو منطقة جغرافية فيه دون غيرها وإن كان العرب قد شكلوا قاعدة ونواة لهذه الخبرة المتنوعة الجامعة فإن طبيعة وواقع دعوة الحق باعتبارها دعوة خاتمة للبشريّة كافة حالت دون الاقتران المانع أو التقوقع الملازم لجماعة دون غيرها. وبذلك «**يظل المنظور الإسلاميّ الحضاريّ**» يوجه الباحث لفعاليات واقع تاريخيّ مغاير أو متغيّر قد تغيب عن مقتربات أخرى تتسم بالإفراط والتفريط، وتغلب عليها الصبغة الماديّة والارتباط بالظاهر أي

تمعن في الأخذ بالأبعاد الدقيقة في تعاملها مع عالم الحركة والتركيب في متابعة الظواهر الاجتماعيّة والإنسانيّة. وفي مقدمة هذه الفعاليات المغيبة تأتي رغبة الأمم الحية في الحفاظ على التراث وتجديد البناء في مواجهة قوى الفساد والبغي التي تقوم على التسلط والاستبداد والطغيان ولو كان ذلك على حساب الآخرين أفرادًا أو جماعات أو في مواجهة قوى التكامل والتآكل والضمور الذاتيّة التي تستنزف طاقة الأمّة والقدرات الفاعلة التي تنتهي بها إلى الهلاك، «**فالمنظور الحضاريّ**» يوجه النظر إلى شروط النهضة بالقدر الذي يتعامل كذلك مع عوامل الهلاك والفناء، وكلا الحالتين: حالة النهضة والاقتدار من جانب وحالة الضعف والاستنقاذ من جانب آخر هي من الحالات التي تلازم الجماعات والأمم عبر الزمان وتلك الحالات التي تستوقف نظر الباحث في الواقع العربيّ بشكل خاص حيث يتجسد مأزق الوجود والبعث الحضاريّ للأمة، ويأتي «**المنظور الحضاريّ الإسلاميّ**» الذي هو في الواقع منظور تجدد حضاريّ ليحتل موقعه كإطار ينتظم العديد من الدراسات الممكنة للواقع العربيّ والإسلاميّ والواقع التاريخيّ المعاصر والتي تتخذ من جملة من الظواهر والأعراض نقاط ارتكاز لإعادة القراءة المشخصة لهذا الواقع. ومن ثم فإن «**المنظور الحضاريّ الإسلاميّ**» كمنظور تجدد حضاريّ من شأنه أن يصوغ فكرا جديدا مبدعا يتسم بالحيوية والإنشاء ويتسم بقابليّة لتحقيق قدر من التنوع والانفتاح على منافذ متعددة ومتجددة عند تكوين الواقع الحضاريّ بالإضافة إلى طبيعة هذا المنظور من حيث كونه يتجاوز إطارا للرؤى التشخيصية إلى «**رؤية حضاريّة إصلاحيّة تكوينيّة**» ومن ثم تتحول الدراسات التي تتبنّى هذا المنظور إلى أن تكون نواة لمشروعات حضاريّة تتسم بقدرة على تحقيق زيادة فهم للواقع وقدرة على ترشيد هذا الواقع فهي تعرضه وتحلله وتفهمه وتقوم بعد ذلك بترشيده انطلاقا من ذلك الفهم من خلال تقديم البدائل والحلول التي تتفق وطبائع التكوين الحضاريّ عامّة والمعني بالكيان الاجتماعيّ الحضاريّ موضع الدراسة خاصة، هذا بالنسبة لفكرة المنظور الحضاريّ.

أمّا بالنسبة للفكرة الأخرى وهي «**فكرة النسق القياسيّ**» وهي فكرة نابعة من النهج الحضاريّ ومكملة له في نفس الوقت؛ فإن كان المنظور يوفر الإطار النظريّ بصورة شاملة متكاملة على مسار حركي في التكوين والتطور والمآل فإننا نجد أنَّ «**فكرة النسق القياسيّ**» تتوجه إلى مقطع من هذه الحركة وتقف عند ملتقيات مَا يمكن أن تقدمه كبناء أو هيئة جملة

من المؤثرات أو المفاعلات في مجال من مجالات الحركة التاريخيّة وإذا مَا كانت فكرة «**الكيان الاجتماعيّ والحضاريّ والبيئة الحضاريّة مع معطيات المنظور الحـــضاريّ**» مـــن المفـــاهيم المؤسّسة والمكونة له فإننا يمكن أن نميز في مجالات وظيفية للجماعة في نظمها الحياتية المختلفة وهنا تأتي أهميّة «**فكرة النسق القياسيّ**» باعتباره مطلبا ومفهوما تحليليا يقدم للباحث مسودة عمل تمكنه من معالجة مسائل تنظيمية وأداتية في تقليل فاعليّة الجماعة؛ ولا يفوتنا أن نذكر أن «**النسق القياسيّ**» يحمل مضامين تتّسق أو تتفق وتنسجم مع «**مصادر التنظير الإســـلاميّ**» عامّة سواء أدرجنا في ذلك «**منظور التجدد الحضاريّ**» أو غيره من المقتربـــات الممكنـــة في دراسة الظواهر الاجتماعيّة والتاريخيّة، وذلك من حيث إنّ التسمية تشير إلى تطلـــع والتقـــاء لجوهر إنسانيّ مع حقيقة كونيّة وجودية، الإنسان بحكم تكوينه كمخلوق أنشئ من عـــدم، ونفخ فيه من روح خالقه، واستوى على هيئة واهتدى ليكون لديه تطلع إلى انتظام في هيئـــة تستوي على شاكلة تمكنه من الحركة المهتدية في إطار من القرار والرشاد. ومن ثم فإن النظم التي تنشأ في خلال عمليّات اتصال وتفاعل بين البشر أو في خلال عمليّات الدفع الحـــضاريّ إذا مَا أردنا النزوع إلى مستوى آخر من الحركة والتحليل لا بد لها من أشكال تلـــبى فيهـــا حاجة الانتظام والاتساق هذه، وهي بمعنى آخر لا تنشأ ولا تتكون كهيئات عشوائية في ضوء الاستجابة لظروف صماء مجردة وبالتالي فإن النسق الذي يوجد عليه نظام مَا وإن لم ينـــشأ مباشرة استجابة لروح وإرادة إنسانيّة إلا أنّه يأتي معبرا عن قيم معنوية تقابـــل وتـــستجيب لحاجات إنسانيّة في سياق خطابات محكمة وإرادة كونيّة مشيئة ومخططة. ومعنى ذلك أنّه إذا كانت حركة الأمّة ومحدثات الجماعات والأمم المختلفة من شأنها أن تتخذ مسارات محـــدّدة عبر الزمن فإن نظمها التي تعبر عن أحد المستويات التحليلية لأعراف الجماعـــة وســـيرتها في مجازات حياتها المختلفة من شأنها كذلك أن تتخذ شكل أنساق يكون من شأنها دعم الجماعة -الأمة- في عمليّات الحفاظ والتجدد الذاتيّ، ومن هنا تـــأتي فكـــرة إضـــافة «**النـــسق إلى القياسيّ**» فإن أداء الجماعة -الأمة- مثله مثل أداء الفرد لا بد أن يقوم في كل مرحلة مـــن مراحله ويقوّم ويوزن وعليه فلا بد من وجود المعايير التي يمكن على أساسها تقييم هذا الأداء وقياس هذا الأداء بشكل دقيق لمعرفة مدى اقترابه وابتعاده من معنويات وتطلعات الجماعة من نفسها لا يوجد عمل إلا من شأنه أن يقع على درجة من درجـــات الإتقـــان والإحـــسان،

ويكون الإحسان بقدر مَا تتحقق الجماعة من ذاتها أو «**خصائصها الذاتيّة**» وتحقق أهدافها. وإن قصر الأداء فيمكن أن يقاس بالسالب. ومن ثم تأتي «**فكرة النسق القياسيّ**» بكل مَا تحمله من مضامين قيميَّة معنوية لتوفر للباحث الذي ينظر في الواقع والأدوات مقياسا دقيقا وميزانا ليس فقط لترشيد دراسته ولكن لتمكيّنه من تجاوز موقعه كناظر ومحقق في واقع معين، لأنّ تجاوز ذلك لا بد منه للباحث ليكون المرشد والخبير الذي يستطيع أن يوجه القائم على الأمر إلى مفاتيح الرشد في أمره. وفي تناولنا المحدود للموضوع سبق أن عرضنا لفكرة «**النسق القياسيّ**» في مجال دراسة النظام السياسيّ وجعلنا من الدولة التي شرعنا في تقديم معالمها النموذج الذي يمكن أن يستقى منه توظيف المنظور الحضاريّ في دراسة الخبرة الحضاريّة للأمّة في الإسلام وكان من شأن تقديم هذا النموذج أن أعدنا النظر في مضامين الكلم وخرجنا عن الأطر الفقهيّة والقانونيّة المحدّدة في التعامل مع ظاهرة تدبير أمور الأمّة والتأصيل لأطر الممارسة السلطوية فيها لنستعيض عن ذلك «**بالرؤية الحضاريّة**» التي تتجاوز كلا من المعاني الحرفية الاصطلاحية للدولة الشرعيّة ولكن تبقى -على كل حال- هذه المفاهيم جميعا مجردة حتى تقوم الممارسة العمليّة في الواقع المعيش.

نموذج ومثال في فقه الواقع العالميّ المعاصر: عوامل الاستمرار وآليّات التغيير:

كيف يمكننا الآن أن نرصد عوامل الاستمرار وآليات التغيير في الواقع العالميّ المعاصر؟

إنَّ الأحداث الكبرى التي عصفت بالعالم بصور بالغة السرعة وشديدة العمق والتأثير في القرن الماضي وتبدل التحالفات والعلاقات السياسيّة بين مختلف بلاد العالم. إضافة إلى دخول العالم فكريًا وعمليًا في مراحل جديدة على جميع المستويات. كل ذلك يجعل رصد المتغيرات المتتابعة بمنظور جزئيّ أو ذري عمليّة بالغة السذاجة أو السطحية في ضوء آليّات وأدوات التحليل التقليديَّة التي لا تعتمد على الربط بين مختلف المتغيِّرات في دراسات اتجاهات التغيير وأدواتها من علوم اجتماعيّة وإنسانيّة إضافة إلى عوامل السياسة.

إنَّ محاولة الرصد العميق لاتجاهات التحولات العالميّة الكبرى ومعالم التغيرات الفكريّة الفلسفيّة ومناهج البحث وانعكاساتها على العلاقات السياسيّة والاقتصادية والاجتماعيّة والثقافيّة تصبح هي العامل الأهم في فهم مجريات الأحداث الكائنة في الحاضر ثم استشراف مَا يكون في المستقبل. إذ إنّنا من أجل وعي هذه التغييرات الكبرى والتركيبات الفكريّة والحضاريّة التي تشكلت والآخذة في التشكل وتكوين صورة المستقبل؛ نحتاج إلى أن نضع نصب أعيننا سائر الأطر الفكريّة والثقافيّة والسياسيّة والاقتصادية والاجتماعيّة التي نعاصرها وندرس بشكل موضوعيّ ومنهجيّ تبدلات وتطورات شبكات العلاقات وحلقات الاتصال بين مختلف أجزاء العالم ومناطقه الحضاريّة خلال القرنين الماضيين (١٩ - ٢٠) اللذين يمثلان قمة تصاعد الحضارة الغربيّة والنفوذ الغربيّ عالميًّا ثم رؤية مَا يمكن أن يؤول إليه الحال في هذا القرن الحالي (القرن ٢١).

إنَّ العديد من الكتابات الغربيّة المعاصرة تتحدث عن نوع جديد، بل أنواع جديدة من الثورة يعيشها العالم الغربيّ فبعد «**الثورة على الكنيسة**» و«**الثورة العلمانية**» و«**الثورة الليبرالية**» وبعد الاكتشافات المتسارعة في العلوم الطبيعيّة التي تمثل «**الثورة العلميّة**» والاتجاهات المختلفة في التطبيقات التصنيعية والآلية للنظريّات والمفاهيم العلميّة «**الثورة الصناعية**» وبعد مرحلة الكشوف الجغرافية وعصر الاستعمار ثم الدخول في عصر الأيديولوجيات والاستقطاب الدولي والحرب الباردة وبعد تجاوز كل هذه المراحل تتحدث الكتابات الغربيّة المعاصرة وخاصة تلك التي تهتم بشئون علوم المستقبليّات وتحولات الفكر

والتاريخ والحضارة عن انطلاق «**ثورة التكنولوجيا**» و«**ثورة المعلومات**» و«**الثورة الأداتيَّة**» و«**البرامج المعلوماتية**» ونظريّات تكامل النظم «**السيبرنتيكا**» وغير ذلك من الأفكار التي تحاول دعم مقولات «**نهاية الأيدولوجيا**» و«**بداية التكنولوجيا**» وتطوراتها. وسائر تلك الأفكار التي أطلقها بعض المفكّرين السياسيّين وعلماء الاجتماع منذ أواخر الستينات وعند النظر إلى استخدام الغرب في تاريخه الحديث والمعاصر لمعطيات «**التقدم العلميّ والنهضة التكنولوجية**»؛ نجد أن النموذج الغربيّ قد استخدم ذلك بما يوافق قيمه ومفاهيمه ومنظوراته الفلسفيّة والأخلاقية وهي تلك القيم والمفاهيم التي حكمتها الرؤى المركبّة من الماديّة والنفعية الغربيّة والرواسب الثقافيّة للحياة والكون والإنسان وللأفكار والأشياء ومن أخلاقياته العلمانية وفلسفاته الوضعيّة المتجردة من الظاهرة الدينيّة والأخلاقية —على مستوى الظاهر— وإن كانت مسكونة مشحونة بالرواسب الدينيّة والأخلاقيَّة المتجاوزة للأبعاد الإنسانيّة والإيمانية في إطارها الدينيّ وفي معطياتها.

إنَّ التقدم العلميّ قد استخدم بداية في القضاء على «**الكهنوت والنفوذ الكنسي**» الذي كان يدافع عن وجهات نظر «**أرسطيّة**» أعطاها صفة كنسيَّة ثم استخدم المنهج العلميّ بصورته هذه في فرض المذهب الوضعيّ العقلاني في الفكر والفلسفة في مقابل المنهج اللاهوتي الدينيّ كما وصل إلى المذهبيّة الوضعيّة المنطقية Positivism عند إحدى مراحل تطوره ومنها جاءت المذهبيّة الطبيعيّة Dialectic Materialism عند مرحلة أخرى أعلى من العلمنة.

ويمكن أن نلاحظ أنَّ الفكر الغربيّ قد استخدم التكنولوجيا ومعطيات التقدم العلميّ الصناعي كافَّة في مرحلة الثورة الصناعية من أجل تحقيق أعلى معدلات الإنتاج الماديّ ومن أجل إحداث التكديس والتراكم الرأسمالي وتحقيق فائض الإنتاج وضحى في سبيل ذلك بالكثير من المقومات الإنسانيّة الأساسيّة ولم يتردد في التضحية بكثير من الأخلاقيات والمثل المتعلقة بكرامة الآدمي وحريته من الاتجار بالعبيد وتوريدهم كسلعة إنتاجية إلى البلاد المكتشفة —أمريكا— وكان التفوق التكنولوجي الغربيّ عاملًا مساعدًا بدرجة هائلة في مرحلة الكشوف الجغرافية ثم مَا تبعها من الاستعمار والتنافس الاستعماري بين الدول الأوربية على حساب تلك الشعوب المستعمرة والمستضعفة في العالم الثالث.

يمكن كذلك رصد ملامح استغلال التكنولوجيا الغربيّة في قطاع آخر هو قطاع المجتمع الغربيّ فهي بعد أن استطاعت فرض السيطرة الغربيّة على العالم وإخضاع سائر الأمم والشعوب خارج المنظومة الغربيّة لها وبعد أن تمكنت من استنزاف ثروات هذه المستعمرات وجلبت المواد الخام الأساسيّة من هناك بأبخس الأسعار ووظفت نفسها من أجل تحقيق الرفاهية المطلقة للإنسان الغربيّ فقط على حساب باقي بني الإنسان من كل شعوب العالم. وعمدت إلى تقديم التسهيلات الحضاريّة الماديّة كافة له ثم استخدمت من أجل دعم سيطرته هو على الكون –الطبيعة- وعلى العالم –الإنسان- الذي ينتمي إلى خارج المنظومة الغربيّة التكنولوجيا المتطوّرة والأقمار الصناعية وطوَّرت الاستخدامات لتشمل القطاعات العسكرية والتسليحية ولتدخل مجال التسليح وسباقات التسلح وفق معطيات الاستراتيجيات الحيويَّة لدول المنظومة الغربيَّة بدرجة أدت إلى تهديد الأرض كلها بالفناء الشامل للعالم بسبب الأخطار النووية وتلوث البيئة وتزايد معدلات التصحر وحدوث المجاعات وتفجر الكوارث البيئية الكبرى وتفتيت الأوزون فوق القطب الشمالي، ذلك كلّه قد أفرز داخل النظام الحضاريّ الغربيّ كائنًا إنسانيًّا مشوهًا هو مَا يعرف «**بالإنسان ذي البعد الواحد**» وأفرز على الصعيد العالميّ واقعًا سياسيّا واجتماعيًّا وحضاريّا خطيرًا بسبب «**المركزية الغربيّة**» و«**الاستقطاب الدولي**» و«**أحادية النموذج الغربيّ**».

إنَّ كل ذلك يعني أن المفاهيم المعرفيّة الغربيّة المتمحورة حول ذاتها في إطار «**الماديّة**» و«**عمليّات الترشيد**» و«**العلمنة**» و«**العقلنة**» والتوجهات «**الوصولية**» و«**النفعية**» وحركيّات التنافس والاستغلال كانت هي الباعث المحرك في استخدام العلم والتكنولوجيا. ذلك الاستخدام الاستغلالي الاستعماري الذي يحتاج اليوم إلى الضبط والتقنين من أجل «**ترويض الوحش التكنولوجي**» الذي صار قادرًا على مسخ الإنسان وتشويهه بل واغتياله؛ وذلك حفاظًا على استمرارية الجنس البشريّ والحضارة الإنسانيّة ولكنها حين جاءت تستغيث باللاهوت الدينيّ إذا بها تجده مصدر أزمات لا مصدر حلول خاصة بعد تفكيكه.

العالم في المستقبل: الواقع والطرح:

إنَّ النظر إلى عالم مَا بعد الحداثة Post-Modernism يجعلنا نوقن بأن ثنائية جديدة ستقوم في هذا العالم مَا بين القيم الماديّة والنفعية ومفاهيم الوصولية والمصلحة والاستغلال

تلك التي تمثلها الخلفية الفكريّة الوضعيّة للحضارة الغربيّة والتي تنطلق من «**لاهوت الأرض**» ومن انعكاسات الفكرة العلمانية اللادينيّة في النظر إلى الحياة والكون والإنسان ذلك من ناحية، وبين تلك القيم المطلقة الإنسانيّة والأخلاقية والجمالية القائمة على الإيمان بالله وتكريم الإنسان وإعمار الكون تلك القيم المستندة على «**التوحيد**» و«**الاستخلاف**» لهذا الإنسان في الأرض وعلى «**التسخير**» تسخير هذا الكون بقوانينه ونواميسه التي تدعو الإنسان إلى الإيمان بقيم التوحيد والتزكية والعمران وما يتفرع عنها من تبّنٍ للهدى والحق والعدل والمساواة بين الناس وإلى الشورى والتكافل داخل المجتمع وذلك انطلاقًا من دعوة التوحيد وشهادة الحق على العالميّن تلك رسالة يحملها الكتاب الكونيّ الوحيد ألا وهو القرآن.

إنَّ المعادلة الفكريّة والعقائدية التي يحملها القرآن تختلف اختلافًا جوهريًا عن تلك التي تظهر في الفكر الغربيّ بكل فلسفاته فهي ليست «**المعادلة السياسيّة**» كما في الفكر الليبرالي التي تضع الحريات السياسيّة في صورة النظام الديمقراطي الليبرالي كقيمة أسمى للمجتمع ثم تشتق منه فكره الاقتصادي في صورة الاقتصاد الرأسمالي الحر.

كما أنّها ليست «**المعادلة الاقتصادية**» التي قدمها الفكر الاشتراكي والماركسي المنهار التي تضع الصراع الطبقي باعتباره المحرك الأول للعلميّة الاجتماعيّة والتاريخيّة وبالتالي تضع صراع طبقات المجتمع مع بعضها البعض وقضاء البروليتاريا على البرجوازية كقيمة أسمى للمجتمع في صورة «**دكتاتورية البروليتاريا**» أو النظام الشمولي السلطوي فتحرّك المجتمع بذلك الاتجاه لتحقيق حتميات تاريخيّة ثبت أنّها هراء.

إنَّ المعادلة الفكريّة التي يقدمها القرآن تبني تصورًا شاملا ومترابطًا للفرد والمجتمع والأمّة والدولة التي تنبثق من داخلها وتقوم بصياغة علاقاتها الاجتماعيّة باعتبارها دعامة أولية في بنائها العام ثم تستخرج من داخل النموذج القرآنيّ قواعد «**التكافل**» كقاعدة اقتصادية تقوم عليها قواعد العمل والعمران لبناء قاعدة اقتصادية إيمانية تقوم عليها عمليّات «**الإنماء العمرانيّ**». ونستخرج من داخل النموذج قواعد «**الشورى**» لتقوم عليها كافة جوانب «**الحريات**» والحقوق والواجبات ولتكون إطارًا للنظام السياسيّ الذي يكفل المشاركة ويضمن «**الحريات ويصون حقوق الإنسان**» داخل المجتمع والأمّة والدولة.

إذن فالمعنى المعرفيّ والدلالي لعمليّة بناء الأمم هو ذلك البناء الذي يقوم على تكافل عناصر المجتمع الإنسانيّ باعتبارهم أسرة كبرى ممتدة تعيش في بيت مشترك هو الأرض تستظل بقيم مشتركة هي «**التوحيد والتزكية والعمران**» وتتحرك وفق قواعد مشتركة منبثقة عنها. ومنها «**قواعد التفكير المشترك**».

النموذج الحضاريّ البديل والعالميّة الجديدة:

إنّنا عندما ننظر في ضوء هذا البديل القرآنيّ إلى واقع العالم المعاصر ومستقبله فإننا لا نشك في أن إنقاذ العالم يتوقف على تحقيق «**العالميّة الإسلاميّة المرتقبة**» لتكون بديلًا كونيًّا للإنسان قبل أن يسلمنا التحريف العلميّ والرواسب الدينيّة الغربيّة إلى نهاية التاريخ؛ بل نهاية العالم من خلال المناداة بانتصار القيم الليبرالية المطلقة والفكر الوضعيّ. إنَّ نهاية التاريخ لن تكون بالوصول إلى «**الإنسان الصناعي الرشيد**» أو إلى «**المجتمع التكنولوجي الآلي**» وفق مختلف تقريرات «**الفكر الماديّ الوضعيّ**» في هذا المجال. بل ستكون وفق قيم القرآن ووفق سنة الله في الكون وسنة الله في الخلق ووفق مضمون «**التدافع الحضاريّ**» الذي قرره القرآن ووفق سنن التداول بين الشعوب والأقوام أتقاهم نفسًا وأصلحهم عملًا **[وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ]** (الأنبياء: ١٠٥) فهي لن تكون «**نهاية التاريخ**» ولكنها «**البداية**» بداية عودة الإنسان الذي استهلكته الحضارة العلمانية الماديّة الغربيّة إلى الحقيقة الإيمانية الأسمى والمعنى المعرفيّ الأصيل لحياته ووجوده. هي «**النهاية**» لحضارة المادة وحضارة الأشياء المجردة في النموذج الغربيّ والبداية الجديدة للحضارة والعمران القرآنيَّين بداية وانطلاقًا من «**العالميّة القرآنيّة المرتقبة**» لذا فإن هذه السحب الكثيفة وهذا الظلام الدامس سينكشفان عن فجر جديد بإذنه تعالى **[أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ]** (هود: ٨١).

لعل هذه الوقفات استطاعت أن تقدم مجموعة نقاط هامة في إدراك «**فقه الواقع**» وأهميته، وضرورة بناء ذلك الفقه دعائم منهاجيّة متينة.

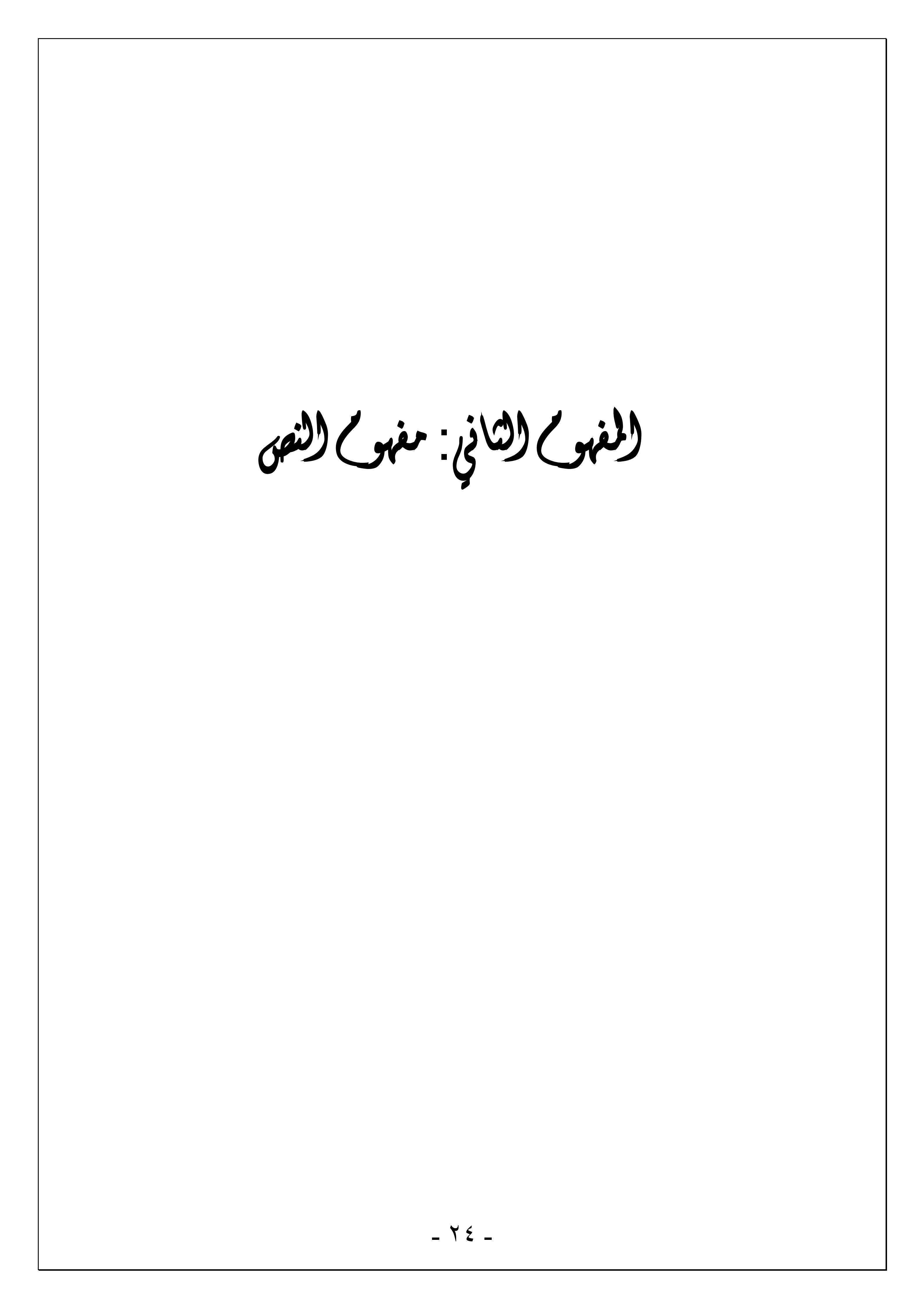
ولعل تلك الوقفات تقنع بأن فقيه هذا العصر والمفكّر والداعية والمصلح فيه أحوج مَا يكونون إلى فقه الواقع ومنهجه وشروطه، وذلك لا يتحقق بدون فرق من الفقهاء في سائر العلوم الإنسانيّة والشرعيّة والاجتماعيّة والطبيعيّة لأنّ «**الواقع**» ليس بذلك الشأن البسيط الذي يتوهم كثيرون أنّهم أدركوه ، و لم يدركوه، ونقطة أخرى نحب أن نلفت النظر إليها:

بالنسبة لنا نحن المسلمين سوف نستمر في الشقاء، والذل والهوان الـــذي نحـــن فيـــه، وستضاعف آلامنا حتى نكتشف القرآن الكريم، ونكتشف أنفسنا، ونكتشف غيرنا، ونحمـــل القرآن الكريم إلى العالم المهدد بالدمار إليه لنأسو جراحه ونعالج أمراضه ونزيل عن عنقه سيف الفناء الذي يهدده – فأين الطريق؟

خطوات على الطريق:

١) أن يسترد العرب والمسلمون وعيهم الحضاري العمراني بالقرآن الكـــريم وأن يوقنوا بأنّه كتاب خلافة وعمران وتزكية أنزل لبناء العمران لا ليقرأ على الأمـــوات. فهـــو برنامج لبناء حياة.

٢) أن يدرك العرب والمسلمون أنّ انفصالهم عن القرآن الكريم لن يزيـــدهم إلا خسارا، وأنهم بحاجة ماسة معرفة كيفيّة قرائته وحمله وتقديمه إلى البشريّة باعتبـــاره الكتـــاب الكوني المعادل للوجود وحركته، القادر على استيعاب مشكلات العصر وتجاوزها.



المفهوم الثاني: مفهوم النص

مفهوم النص

النص في اللغة

«**النصّ**» لغة: مصدر من نَصّ يَنُصُّ. وقد استعملته العرب في معان عديدة؛ منها:

- الرفع بنوعيه؛ الحسّيّ، والمعنويّ. يقال: «**نصّت الظبية جيدها**» إذا رفعته. ويقال: «**نص ناقته**» إذا رفعها في السير ليسرع. وفي الحديث عن إفاضة رسول الله r جاء: «**فإذا وجد فجوة نصّ**»[٢]. وقد استعمل المحدثون لفظ «**نصٍّ**» لإرادة رفع الحديث، فإذا قالوا: «**نصّ الحديثَ**» أرادوا رفعه (أي: إلى النبيّ r)، أو أسنده إلى قائله أو راويه؛ وإذا قالوا: «**نصّ الحديث إلى فلان**» أي: أسنده إلى راويه. ولذلك قال عمرو بن دينار في معرض الثناء على الزُهري: «**ما رأيت رجلًا أنصّ للحديث منه – أي أرفع له، وأشدّ تمسّكًا بإسناده إلى راويه**» [٣].

- جعل الشيء فوق سواه؛ فإذا قالوا: «**نصّ المتاع**» أرادوا أنّه جعل بعضه فوق بعض ترتيبًا له وعناية به.

ويطلقونه أحيانًا يريدون به: «**أقصى الشيء وغايته ومنتهاه**». وقد أخرج البيهقيّ: «**إذا بلغ النساء نصّ الحِقاق فالعَصَبَة أولى**»[٤].

[2] متفق عليه، انظر:العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، ١٩٨٨م، مج٣، ص٥١٨. والنووي، محيي الدين يحيى. صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، د.ت، مج٩، ص٣٤.

[3] ابن الأثير، مجد الدين. النهاية في غريب الحديث والأثر، بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨م، مج٥، ص٦٥. الزمخشري، جار الله أبو القاسم. أساس البلاغة، بيروت: دار صادر، ١٩٧٩م، ص٤٥٩.

[4] فسّر قوله: «**نصّ الحقاق**» بأقصاه وغايته ومنتهاه: راجع «**السنن الكبرى**» (١٢١/٧) و«**الحقاق**» مصدر «**حاقق يحاقق محاققة وحقاقًا**»، فمنهم من فسّر «**الحقاق**» بالخصام، وعلى ضوء هذا بيّنوا معنى الأثر بأنّه إذا بلغ النساء في سنّهن الغاية والمدى الذي يتمكّنّ فيه من «**المحاققة**» أي: المخاصمة عن أنفسهنّ فالعَصَبَة أولى بهنّ من أمّهاتهنّ. أو بلغن السنّ التي يحاقق الأولياء فيهم، بحيث يقول كل من الأولياء: «**أنا أحق بها**». وبهذا فسّروا الأثر الذي أخرجه البيهقيّ – عندما فسّر الحقاق بالإدراك أو بلوغ العقل؛ لأنّ الحقاق والخصام عن النفس إنّما يتأتى عند غاية الإدراك ومنتهى النضج العقليّ في تلك المرحلة. ومنهم من فسّر «**الحقاق**» بأنّها جمع «**حِقّة**»، وهي نهاية الصغر أخذًا من «**حقاق الإبل**» التي بلغت ثلاث سنين فاستحقت طروق الفحل، واستحقت أن يحمل عليها.

- السير الشديد، يقال: «**نصّ الدابّةَ نصًّا**» سار بها شديدًا. وهذا المعنى يرجع إلى «**الرفع**» وبلوغ الغاية، أو أقصاها؛ لأنّ الدابّة في السير السريع ترفع فتقوم بأقصى وبغاية مَا تستطيع من الجهد[٥].

- الحث: وهو راجع إلى «**الرفع**» المتقدّم، يقال: «**نصّ الدابة**» أي: حثّها على السير، وهو لازم لرفعِها.

- التحريك: يقال: «**جعل فلان يَنُصُّ أنفه غضبًا**» يريدون بذلك: يحركها. وهو راجع إلى «**الرفع**» كذلك. وبعضهم إذا أراد «**التحريك**»، قال: «**نصنص**»، وفي حديث أبي بكر t أن عمر t دخل عليه وهو «**ينصنص لسانه**» أي يمسك به ويحرّك، ويقول: «**هذا أوردني الموارد**»[٦].

- السؤال المستقصي، يقال: «**نصّ الرجل نصًّا**» إذا استقصى السائل المسئول استقصاءً؛ مثل مَا يجري في التحقيق في الجرائم ونحوها في أيامنا. وهذا راجع إلى بلوغ الغاية والمنتهى.

- الشدّة؛ يقال: «**بلغنا من الأمر نصّه**» أي: شدّته.
- التعيين؛ يقال: «**نصّ عليه كذا نصًّا**» أي: عيّنه.
- التوقيف؛ يقال: «**نصه عليه نصًّا**» أي: وقفه، وأطلعه عليه.
- الإظهار؛ يقال: «**نصّ الشيء نصًّا**» أي: أظهره.

هذه جملة المعاني التي تستعمل العرب كلمة «**نصّ**» ومشتقاتها فيها، وهي ترجع بجملتها إلى «**الرفع والفوقيَّة**» وما يلزم عنهما. و«**الفعل**» -أي: «**نصّ**»- يتعدّى إلى المفعول به بنفسه فهو في الأصل فعل متعدٍّ بنفسه مَا دام قد استعمل وأريد به «**الرفع**». فإذا أريد تضمينه معنى إضافيًّا، أو مغايرًا عدّيِ بحرف من حروف التعدية يناسب معنى الفعل المضمّن. كما في بعض الأمثلة المتقدّمة.

ولذلك فسّروا «**نص الحقاق**» في الأثر بانتهاء الصغر، وراجع مختار الصحاح ولسان العرب والمصباح المنير وتاج العروس مادة «**نص**».

(5) راجع المظان اللّغويّة نفسها في المادة نفسها.

(6) الرازي، محمد عبد القادر. مختار الصحاح، بيروت: المركز العربيّ للثقافة والعلوم، ١٩٩٥م، مادة (نص).

وفي التتزيل: **[إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ]** (هود:٥٦)، و«**الناصية**»: موقع انتهاء جبهة الإنسان بمقدّم رأسه؛ ولذلك قالوا: هي موضع قصاص الشعر. والله I آخذ بنواصي الخلق، أي: متمكن منها. وقال تعالى: **[كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ {١٥} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ]** (العلق:١٥-١٦)، يقال: «**نصوت فلانًا وانتصيته وناصيته**» أي: أخذت بناصيته. و«**فلان ناصية قومه، أو نصيَّتهم**» خيارهم ورأسهم. و«**النصيّ من القوم**» الأفضل، و«**نواصي القوم**» أفاضلهم ورؤساؤهم.

«النصّ» في لغة الإمام الشافعيّ[7]

قال الإمام: «**ما سنّ رسول الله r مما ليس فيه نصٌّ حكم...**»، فالنص – عنده – هنا مَا جاء في الكتاب. (الفقرة ٥٦) من الرسالة.

وفي فقرة (٩٧) جاء «**...في الفرائض المنصوصة من كتاب الله...**».

في فقرة (١٠٠) «**...ومنها مَا بيّنه عن سنَّة نبيّه، بلا نصِّ الكتاب**». وأراد الإمام أن هذا النوع الذي أشار إليه بيّنته السنّة، ولم يبيَّن عن الكتاب بالنص عليه فيه.

وفي فقرة (٢٩٨) قال: «**وسنن رسول الله r وجهان: أحدهما: نصُّ كتاب فاتّبعه رسول الله r كما أنزل الله، والآخر جملة، بيّن رسول الله فيه عن الله معنى مَا أراد بالجملة... وكلاهما اتّبع فيه كتاب الله**». ومراد الإمام بـ«**الجملة**» ليس «**المجمل**» بمعنى المبهم –كما قد يتبادر لبعض الأذهان– بل مَا جاء على سبيل الإجمال، لا على التفصيل. فالإجمال –هنا– مقابل للتفصيل، لا للبيان: وإن كان البيان لازمًا من لوازم التفصيل،

---

(7) إنّ تحديد مفهوم «**النصّ**» وضبط دلالته أمر يحتلّ أهميّة كبيرة في توضيح شبكة أخرى من المفاهيم التي أدى التساهل فيها قديمًا وحديثًا إلى الإرباك؛ وقد يكون من أخطر مَا تواجهه الساحة الفكريَّة من الظواهر المرضيَّة، هذا التساهل في نقل وتداول المفاهيم دون تتبع الجذور الثقافيَّة أبنيتها، ثم نقلت منها إلى منظومة ثقافيَّة أخرى، لها خصائصها ومصادرها ومواردها ولغاتها وأهدافها. ولذلك فإن الباحث الجاد لا بد له من الصبر على تحديد مفاهيمه ومصطلحاته، وبيان مراده في كل منها، وطرائقه في استعمالها. وبدون ذلك يصعب عليه -إن لم يتعذر- إيصال مَا يريد إلى قرائه. ونحن في تحديدنا لمفهوم «**النص**» وحصره في القرآن المجيد نتجاوز السيولة في المفاهيم التي أسس لها «**أصحاب البقرة**» والملتزمون بمنهج «**راعنا**» والتي جعلت البشريَّة –كلّها– اليوم تتكلم لغة «**راعنا**» لا لغة «**انظرنا**».

فالإجمال –هنا– يتناول الكليّ الذي يتبيّن المراد منه بجزئيّاته، والتفاصيل التي توضّح مَا أريد بالجملة، والتطبيقات العمليّة التي توضح المراد بجزئيّات وتفاصيل مَا أريد بالجملة. وعلى هذا يكون المراد بالجملة: مَا نزل غير مصحوب بالتفاصيل والجزئيات، والكيفيّات العمليّة؛ فتقوم السنّة ببيان ذلك. والله أعلم. فهي ليست بنصّ، ولكنّها بيان له.

وفي فقرة (٣٠٠) قال: «**...أحدهما: مَا أنزل الله فيه نصّ كتاب، فبيّن رسول الله r مثل مَا نصّ الكتاب...**».

وفي فقرة (٣٠٣) استبدل كلمة «**أصل**» بكلمة «**نصّ**» فقال: «**...ومنهم من قال: لم يسنّ سنّة قط إلاّ ولها أصل في الكتاب أي: نصّ تبيّنه**».

وفي فقرة (٣٠٨) «**...ليعلم من عرف منها مَا وصفنا أنّ سنّته r إذا كانت سنّة مبيّنة عن الله معنى مَا أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه، وفيما ليس فيه نصّ كتاب...**».

وفي فقرة (٣١٤) قال: «**...وأنّ السنّة لا ناسخة للكتاب، وإنّما هي تبع للكتاب بمثل مَا نزل نصًّا ومفسّرة معنى مَا أنزل الله منه جُملًا**».

وفي فقرة (٤١٩) قال: «**...وأنّ سنّته تبع لكتاب الله فيما أنزل، وأنّها لا تخالف كتاب الله أبدًا**» (أي: لا في الجزئيّات ولا في الكليّات. وتأبيد الإمام هذا يعني على الإطلاق، كما في استعمالات كثيرة له).

وفي فقرة (٤٤٠) «**...وقد كانت لرسول الله r في هذا سننًا ليست نصًّا في القرآن، وذلك في كثير مَا يندرج تحت قوله تعالى: [وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ]** (البقرة:**١٢٩**) وقوله: **[وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلا بَلِيغًا] (النساء:٦٣)** ».

وفي فقرة (٤٦٥) «**...إذ لم يكن بعض ذلك منصوصًا في الكتاب**».

وفي فقرة (٤٧٩) «**...فيما لله فيه فرض منصوص... فيما ليس فيه لله حكم منصوص...**».

إن الذي جعلني أقدم مفهوم «**النصّ**» لدى الإمام الشافعيّ –رحمه الله– على ذكر المراد بـ«**النصّ**» اصطلاحًا: إنّ الإمام الشافعيّ إمام في اللّغة، وحجّة فيها وهو في الوقت

ذاته مؤسّس «**علم أصول الفقه**». وهو الإمام الذي اعتبرته جمهرة الباحثين قديمًا وحديثًا من عزّز مكانة «**أحاديث الآحاد**» ونافح عن حجيّتها، وأعطى السنن إجمالًا مكانة موازية للقرآن المجيد وما نقلناه من عباراته في «**الرسالة وفي الأم**» دليل لا يحتمل تأويلًا أو لبسًا على أنّه يرى القرآن —وحده— نصًّا مؤسّسا تنعكس فيه وعليه سائر المعاني اللغويَّة التي ذكرت للنصّ. ونجد الإمام كذلك صرّح بأن السنن الصحيحة الثابتة لا بد أن يكون لها أصل في القرآن الكريم، وأنّها في سائر أحوالها تبع له تدور حوله أينما دار.

معنى النصّ في العرف العام والاصطلاح الفقهيّ والأصوليّ:

تعارف العلماء على أن يطلقوا كلمة «**النصّ**» ويريدون بها «**كل كلام مفهوم المعنى**»[٨]؛ وفهم المعنى من النص لازم من لوازم النصّ، ولكنّ حقيقة «**النصّ**» فهم المعنى وزيادة، نحو كونه لا يحتمل غير ذلك المعنى، أو يراد به ذلك على سبيل الظهور أمّا غيره فيكون مرجوحًا.

أمّا في الاصطلاح الفقهيّ، فإنّهم إذا قالوا: «**هذا الحكم ثبت بالنصّ**» أرادوا أن دليله ثبت من الكتاب، أو من السنّة باعتبارها رفعًا إلى النبيّ ﷺ وإسنادًا إليه؛ فإن أرادوا التظافر بين النصّ القرآنيّ والبيان النبويّ تظافر النص لما يبيّنه على سبيل التنفيذ والتطبيق الذي يتناول ويبرز سائر التفاصيل فيكونون —إذن— قد أطلقوا مفهوم «**النصّ على السنّة**» من قبيل التغليب كما يقال: «**القمران للشمس وللقمر**».

في اصطلاح جماهير الأصوليّين، وهم الذين يطلق عليهم «**المتكلّمون أو الشافعيّة**»، جاء تعريف «**النصّ**» بأنّه كل لفظ دالّ على الحكم بصريحه على وجه لا احتمال فيه[٩] ومثّلوا له بقوله تعالى: **[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ]** (الفتح:٢٩) فإنّها دلت بشكل قاطع وبدلالة مطابقة على حكم، وهو إثبات الرسالة لمحمد ﷺ ولا تحتمل غير هذا المعنى على أيّ وجه.

---

(8) الكفوي أبو البقاء، أيوب بن موسى. الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، مج٤، ص٣٦٦.

(9) الشيرازي، أبو إسحق. اللمع في أصول الفقه، بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٣م، ص٤٨.

أمّا أصوليّو الحنفيّة أو الفقهاء، فقد عرّفوه بأنّه: «**ما يزداد وضوحًا بقرينة تقترن باللّفظ من المتكلّم، ليس في اللّفظ مَا يوجب ذلك ظاهرًا بدون تلك القرينة**»[10]. ومثّلوا له بقوله تعالى: **[وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا]** (البقرة:٢٧٥). فالآية نصٌّ في التفرقة بين البيع والربا بحل الأول وحرمة الثاني؛ قالوا: وقد فُهِمَتْ هذه التفرقة بقرينة مقاليّة انضمت إلى الآية الكريمة سياقًا، وهي قوله تعالى: **[ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا]** (البقرة:٢٧٥). فدلت على أن المقصود إثبات التفرقة ونفي التماثل بينهما. وقالوا: ليس في أية **[وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا]** (البقرة:٢٧٥) مَا يوجب ظاهرًا أن المقصود إثبات التفرقة بدون تلك القرينة. وقالوا: إنَّ الآية الكريمة ظاهرة الدلالة على حل البيع وحرمة الربا، ولكن تلك القرينة زادت الآية الكريمة وضوحًا في دلالتها على التفرقة بينهما على دلالتها على الحل والحرمة[11]. قلت: إنّ الفريقين حاولا الانتصار لمذاهبهما في ذلك. ولكنّ «**النصّ**» إذا لاحظنا المراد به لغة، ولاحظنا –كذلك– استعمال الإمام الشافعيّ له يكون المراد به القرآن المجيد وحده؛ فهو ذو الرفعة والظهور على سواه، وهو الغاية والمنتهى.

وهو الذي وصفه منزّله **Y** بـ«**القول الثقيل**» **[إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا]** (المزمل:٥) وهو الذي أوقف رسول الله **r** على الوحي وأظهره له وأطلعه عليه. وهو قبل ذلك وبعده «**المصدّقٌ على تراث النبوّات كلّها والمهيمن عليه**».

فلا ينبغي أن يشارك القرآن شيء آخر في حمل اسم ووصف «**النصّ**». وكان للأصوليّين متّسع ومندوحة في استعمال أي مصطلح آخر دون حاجة إلى تمييع هذا المفهوم والتساهل في استعماله لتندرج تحته جوانب أخرى كان لها أثرها في خلط كثير من القضايا، وتشويش جانب من جوانب العلاقة بين الكتاب والسنّة – وبذر بذور أزمات في الفكر وقد درج المحْدَثُون على استعمال هذا المفهوم الذي أسقطوا عليه ترجمة (Text) ليجعلوا من كل قول أو خطاب نصًّا.

---

(10) السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد. أصول السرخسي، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٣م، مج١، ص١٦٤.

(11) البخاري، عبد العزيز. كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٧، مج١، ص٤٧. وهذه التعريفات لدى الفريقين انبثقت، لا من النظر إلى مفهوم «**النص**» في ذاته وحقيقته؛ بل من النظر إلى الاجتهاد والمجتهدين، وزوايا نظرهم إلى مصدر الاستنباط ودليله.

نخلص من كل مَا تقدم على التأكيد على ضرورة إفراد القرآن المجيد بمفهوم «**النصّ**» وعدم إشراك أي شيء آخر معه فيه، وأما «**السنن**»: فهي مبيِّنة للنص الذي يقتضي البيـــان والتأويل في الواقع والتطبيق الفعليّ والقوليّ؛ لأن «**البيان**» في القرآن الكريم مفهوم كامــل لا بد من إدراك جوانبه المختلفة، التي ليس منها بيان الغموض والالتباس حيث لا غمـــوض في القرآن الكريم ولا التباس. فهي تابعة له، دائرة في فلكه ومداره لا تنفصل عنـــه بحـــال مـــن الأحوال. ولا دليل يدل على هذا الانفصال، لا من الكتاب ولا من السنّة ولا غيرهما.

المفهوم الثالث

الزمن أو البعد الغائب في قراءة الواقع

الزمن

هو مخلوق غامض لا نحسّه ولا ندرك حقيقته لكنّنا نحسُّ علاماته[١٢]، ووسائل تقسيمه[١٣]، وبعض عوارضه[١٤]، وندرك كثيرًا من آثاره التي لا تحصى في أنفسنا ومداركنا وأبداننا وسائر التغيُّرات التي تكتنف حياتنا؛ من حمل وولادة، وطفولة وتمييز، ومراهقة وشباب، وكهولة وشيخوخة ووفاة. كما ندرك آثاره في كل مَا حولنا.

أمّا «**الموت**» فهو مرحلة ذات بعد زمنيّ مغاير للبعد الزمنيّ الذي نعايش آثاره في الحياة الدنيا. ومع أهميته القصوى فإننا لا نجد للوعي بالزمن أثرًا في قراءة الأحداث المعاصرة، خاصة في المحيطين العربيّ والإسلاميّ إلا بشكل شائه وغامض يعبر الكثيرون عنه بما يعرف «**بأشراط أو علامات الساعة**»!!.

هل من تعريف له؟

مع كل مَا ذكرناه وما لم نذكره من عوارض هذا المخلوق العجيب -الزمن- فقد جرت محاولات من صنوف عديدة من العلماء لتعريفه قبل الإسلام وفي المراحل الإسلاميَّة المختلفة، وحتى عصرنا هذا من غير أن يقدموا لنا تعريفًا جامعًا مانعًا كما يقول المناطقة.

واللغويّون الذين اهتموا بالمفردات العربيّة اختلفوا في مدلول هذه المفردة فذهب بعضهم إلى أنّها تدل على «**الإبّان**» ويريدون به: الزمان الذي يتجزأ إلى مواسم مثل «**زمان الحر**» و«**زمان البرد**»، و«**الزمان المهيّأ لأهم مَا يحدث أو ينتج في تلك الأزمنة**» مثل «**زمان الفاكهة**» و«**زمان الحصاد**»، وهو في هذا يقابل «**الأبد**» الذي هو عبارة «**عن زمان ممتد لا يتجزأ**» ولذلك قبلوا لغة أن يقال: «**زمان كذا**» و لم يقبلوا أن يقال: «**أبد كذا**»[١٥].

وبعضهم اعتبر «**الزمن**» مرادفًا «**للدهر**»، والذين أشاروا إلى شيء من الفرق بينهما بنوا ذلك على أن «**الدهر**» ممتد، والزمن ليس كذلك. «**فالدهر —في الأصل- اسم «لمدة العالم» من مبدأ وجوده إلى انقضائه**». وحملوا على ذلك قوله تعالى: **[هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ**

---

[١٢] كالشمس والقمر والنجوم وعلاقتها بالليل والنهار وتقسيماتها.

[١٣] كالدهور والقرون والعقود والسنين والشهور، والفصول.

[١٤] كمواسم الحر والبرد والمطر وما إلى ذلك.

[١٥] راجع المفردات مادتي «**أب**» و«**أبد**».

حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ] (الإنسان: ١) قال الراغب: «**... ثم يعبّر به عن كل مدَّة كثيرة. وهو خلاف الزمان؛ فإنّ الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة. ودهر فلان مدة حياته**»[١٦]. والراغب في هذا يجعل «**الزمن**» أعم من «**الدهر**».

وما يقوله بعض الجهلة من نسبة كل شيء إلى الدهر غير مقبول دينًا وهو من تراث الجاهليّة، حيث قالوا مَا حكاه القرآن المجيد عنهم: **[مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ]** (الجاثية: ٢٤) وقد ورد النهي عن سب الدهر في الحديث؛ لاشتمال ذلك على نسبة مَا يعتري الناس والكون والحياة من صروف وتقلّبات إلى الدهر، ونسيان الله الخالق لكل شيء وما الدهر إلّا شيء من تلك الأشياء المخلوقة المسخرة والله هو الذي رسم للخير والشر سننًا وقوانين لا تبديل لها. ووفقًا لتلك السنن الإلهية يقع مَا يقع من خير وشر[١٧].

وقد عرّف الجرجانيّ من الأشاعرة «**الزمان**» بأنّه «**مقدار حركة الفلك الأطلس عند الحكماء**». وعند المتكلمين: «**عبارة عن متجدّد معلوم يقدّر به متجدِّد آخر موهوم**»، كما يقال: آتيك عند طلوع الشمس فإن طلوع الشمس «**معلوم**» ومجيئه موهوم، فإذا قرن ذلك الموهوم بذلك المعلوم زال الإبهام [١٨].

والقرآن المجيد كعادته لم يلتفت لإعطاء تعريف جامع مانع للزمن؛ بل منحنا تصورات لعلاقتنا به من حيث كوننا مفطورين على قدرة التذكر التي تهيئنا وما تختزن الأذهان منّا للتذكر عند الحاجة، تتمثل «**بالذاكرة**» وقدرة على «**التوقع**»، وانتظار مَا يأتي به الغد أو المستقبل، وذلك لدفع الإنسان إلى تنظيم حياته في إطار إدراك لماض وحاضر ومستقبل.

---

[١٦] راجع المفردات للراغب مادة «**دهر**». وعرف الجرجاني «**الدهر**» بأنّه «**الآن الدائم الذي هو امتداد الحضرة الإلهيّة، وهو باطن الزمان، وبه يتحد الأزل والأبد**». قلت: وفي تعريفه هذا نظر. ولعله ذهب إلى ذلك بناءً على تعريفه «**للأبد**» «**بأنه استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل**».

[١٧] إشارة إلى حديث: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**».

[١٨] التعريفات ص ١٥٢ باب الزاي.

وفي الوقت نفسه ذكر القرآن الكريم سائر أقسام وقسائم الزمن فذكر «**الدهر والأبد والأجل والوقت واليوم والسنة والشهر والساعة**»، وربط العبادات والوقائع بما يناسبها من تلك الأجزاء.

كما ذكر الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، والنور والظلام. وبين الحكمة في كل تلك المخلوقات: فالشمس والقمر خلقا، وحركا بالطريقة التي يتحركان بها **[لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ]** (يونس:٥)، وخلق النجوم **[لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ]** (الأنعام:٩٧) وخلق النهار منيرًا مشرقًا لتتمكنوا من السعي فيه. وجعل الليل مظلمًا لتسكنوا فيه. وربط منظومة العبادات بتلك الأقسام الزمانيَّة ربطًا وثيقًا محكمًا حتى يجعل ذلك -كله- من المسلم المتدبِّر لتلك الظواهر إنسانًا ذا وعي عميق بالزمن وأهميته، وكيفيّة توظيفه ليكون قادرًا بذلك على الوعي العمرانيّ، والتخطيط والبناء الحضاريّ واستثمار كل جزء منه في ذلك. وإحساس الإنسان في الوقت ذاته بالعلاقة بأقسام الزمن ومراحله -كلها- من بدء الخليقة حتى انتهاء الناس إلى الجنة أو النار؛ أي: مرحلة الخلود التي لا تخضع لزمن يجعله قادرًا على الإحساس بدوره في الحياة؛ والحياة دور.

وهذه الطريقة القرآنيَّة في التعريف بالأشياء والظواهر هي أفضل الطرق وأهمُّها وأجداها. وهي أكثر نفعًا من التعريفات الأرسطيَّة الجامعة سواء أكانت حدودًا أو رسومًا، فالطريقة القرآنيَّة تفيد تصور الشيء أو الظاهرة، وتقدم فوائد أخرى كثيرة لا يمكن استفادتها بالتعريفات المنطقيَّة مهما اتقنت. ولذلك فإنَّ إدراك حقيقة الزمن مما عرضه القرآن المجيد مغن عن صياغة تعريف منطقيّ قاصر على الرسوم صورة لفظيَّة للحقيقة المعرَّفة.

وإذا كان للقرآن الكريم طريقته في إيجاد تصور دقيق في العقل الإنسانيّ عن الزمان فإنَّ لكل لغة من اللغات وحضارة من الحضارات طرائقها المتمايزة في تصوير الزمان في مراحل مَا قبل الإسلام وفي مرحلة انحسار الحضارة الإسلاميّة وتراجعها.

فهناك حضارات كانت تحدِّد معاني الزمان بحسب حاجات إنسانها. وحضارات تحدِّد معاني الزمان وتقسيماته في ضوء أيامها ومواسمها وأعيادها المبتكرة وطقوسها.

وحضارات تحدِّد معاني الزمان وتقسيماته وفقًا للمواسم الطبيعيَّة من حر وبرد وطول النهار وطول الليل وما إلى ذلك من عوارض الطبيعة.

ومهما يكن من أمر فإنّ الأديان قد عنيت بالزمن عناية كبيرة لا تقل عن عناية الفلسفة واللُّغات. وكانت للأديان الوضعيّة والوثنيَّة وجهاتها في تحديد مفهوم الزمن، والتعامل مع ظواهره ومصادر تقسيمه كالشمس والقمر. وللأديان السماويّة موقف آخر. وكان أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم قد ولد ونشأ في مهد الحضارات الأولى في مدينة «**أور**» إحدى حواضر السومريِّين ومن سبقهم ومن جاء بعدهم في «**وادي الرافدين**». ورأى في شبابه قومه وهم يعكفون على أصنام لهم، وشاهد آخرين يعبدون النجوم؛ ولما اصطفاه ربه لرسالته أخذ يجادل قومه في الله، ويحاول الأخذ بأيديهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد. فطرح على الملك قضيّة «**الموت والحياة**»، وقضيّة «**التصرف في مصادر تقسيمات الزمن**» «**الشمس**» أمّا الموت والحياة فقد أوهم الملك «**النمرود**» نفسه أنّه قادر على التحكم فيهما، فحاول المغالطة، وقال: «**أنا أحيي وأميت**» فقتل أحد سجينين وأطلق الآخر، وتجاهل مراد إبراهيم بالموت والحياة أصل الإيجاد والخلق، ثم حقيقة الموت. فتحول إبراهيم في حجاجه معه إلى حركة الشمس وجريانها، وتحدى «**نمرود الملك**» بأن يغير أو يتحكم في مسيرها فبدلًا من أن تشرق من المشرق فيبدأ النهار، وتغرب في المغرب فيبدأ الليل طلب من هذا الطاغية المدعي للألوهيَّة أن يغير مسارها ليتغير تعاقب النهار والليل إن كانت له القدرة المطلقة حقًا. فأفحم نمرودًا، و«**بهت الذي كفر**».

وفعل -بأسلوب آخر- مثل ذلك مع قومه، وهو يحاول إقناعهم بالتخليِّ عن أصنامهم، والتوقف عن عبادة النجوم والكواكب، وقد سجل القرآن الكريم ذلك الحوار وتلك المجادلة في آيات (سورة الأنعام من الآية ٧٤-٨٤) [**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ {٧٤} وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ {٧٥} فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ {٧٦} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ {٧٧} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ {٧٨} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {٧٩} وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ**

رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ {٨٠} وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨١} الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ {٨٢} وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {٨٣} وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ] (الأنعام: ٧٤-٨٤) ففي هذه الآيات الكريمة يأخذ إبراهيم بأيدي البشريَّة إلى «**التوحيد**»، ويقدم دليلًا قاطعًا على ألوهيَّة الله -عز وجل- لكل شيء بادئًا بتفنيد ألوهيَّة النجوم، ثم القمر ثم الشمس إذ أن دليل العيان والمشاهدة يثبت «**أفول ونقص**» كل منها؛ وذلك يجعلها في حاجة إلى من يكمل نقصها، ويسيّرها ويسخرها، ويهيمن على حركتها، وما ذلك إلا الله العزيز الحكيم الذي ينهي إبراهيم الحوار بتوجيهه وجهه إليه وحده. و لم يقف جهد إبراهيم عند هذا، ولكنَّه عندما أمر وولده إسماعيل ببناء أول بيت لله على الأرض: بنى العبادات التي أمرا بها على مراعاة السنة القمريّة أو منازل القمر [١٩]، وخاصّة الحج الذي كان المقصد الأساسيّ من بناء البيت. ثم بقيَّة العبادات و«**تحريم الزمان**» وحرمة المكان.

وذلك لأنَّ ربط العبادات بمنازل القمر تجعل الإنسان قادرًا على أن يوقع عباداته في جميع أجزاء الزمن حيث تدور أيام الحج والصيام والجهاد في سائر المواسم والأيام فتقع في الصيف وفي الشتاء وفي الربيع وفي الخريف وفي الحر وفي البرد، فلا يخلو أيُّ جزء من الزمان في أي حال من الأحوال من عبادة لمن رزقه الله شيئًا من العمر المديد فمن صام شهر رمضان لمدة ثلاثين سنة فقد صام في كل يوم من أيام السنة وفي كل موسم من المواسم، وهكذا الحال بالنسبة للحج. كما أنّ بناء هذه المواقيت على سير القمر ومنازله المقدَّرة يجعل ثبوت بداية الشهور أمرًا سهلًا ميسَّرًا للناس كافّة بقطع النظر عن أنصبتهم من «**علم الفلك**» فيمكن إثبات ذلك بالرؤية البصريَّة لمن لا يجد وسيلة غيرها، ويمكن الوصول إلى ذلك من غير توقف على أيّة وسائل دينيَّة أو قرارات سياسيّة، أو وسائل معقّدة لا تتوافر لكثير من البشر.

---

[١٩] راجع تفسير الفخر الرازي (٥٨/١٦) ط، دار الفكر المصورة، بدون تاريخ، وتفسير المنار (١٠ /٤ ١٢) وما أورده بعد ذلك في تفسير «**آية النسيء**».

استدارة الزمان:

كثير من الديانات الماضية نظرت إلى الزمان على أنَّه دورات متعاقبة، فلا فناء ولا عدم، بل هو خلود، ولكن بأشكال مختلفة. فالحياة -في نظر تلك الأديان- في حالة تجدُّد مستمر. ثم يذهب كل منها مذهبه في تفسير ذلك التجدُّد وذلك الخلود.

وهذه الرغبة في الخلود ومقاومة البلى نزعة إنسانيَّة قديمة بدأت مع أبينا آدم؛ بل كانت أهم مداخل إبليس لإغوائه وزوجه وإغرائهما بالأكل من الشجرة الممنوعة **[قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى]** (طه: ١٢٠) ولعل في هذا إشارة إلى أن «**الزمن**» كان واحدًا من الأسماء الضروريّة التي علمها الله -تعالى- لآدم عليه السلام فليس صحيحًا مَا حدَّده المتأثرون في «**المجازفات التوراتيَّة المحرّفة**» من أنَّ الإحساس بالزمن بدأ قبل حوالي خمسين ألف سنة قبل الميلاد حين تعلم الإنسان كيف يدفن موتاه**!!** وزعموا -كذلك-: إنّ هذا الإحساس بالزمن قد تبلور ابتداءً من العصر الحجري القديم (حوالي ٣٥٠٠٠) ألف سنة قبل الميلاد حينما بدأ الإنسان يضع إلى جوار جثث موتاه بعض الأطعمة والأسلحة والأدوات التي قد يحتاجها فيما كان يراه هؤلاء رحلة في الوجود المتَّصل لأولئك الموتى الراحلين [٢٠].

«**إنّ بعض الحضارات قد قدمت تصورات «للدورات الزمنيَّة»** فحضارة شعب المايا اعتقدت أن الزمان يكرّر نفسه في دورات مدة كل دورة ٢٦٠ سنة. وتؤمن بعض العقائد الهنديَّة بما يسمى بـ(الماهايوجا) أي: السنة الطويلة ومدها - عندهم- (١٢٠٠٠) سنة؛ وهي وحدة الدورة التي يكرر الزمان بعدها نفسه. وتذهب ديانات أخرى إلى القول بأنّ الزمان دورات متجدّدة متعاقبة دون تحديد، وأنَّه لا نهاية له» [٢١].

«**وكثير من الاعتقادات الباطلة مثل عقيدة «تناسخ الأرواح»** في الديانة الهندوكيَّة والفلسفة الفيثاغوريَّة عن رؤى وتصورات منحرفة للزمن ودوراته» [٢٢].

---

(٢٠) راجع فكرة الزمان عبر التاريخ سلسلة عالم المعرفة العدد ١٥٩ ص ٧ إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب/ الكويت/ آذار - مارس ١٩٩٢.

(٢١) فكرة الزمن مصدر سابق ص ١٥.

(٢٢) المرجع السابق.

كذلك فإن كثيرًا من الاحتفالات والمواسم والطقوس ارتبطت بتلك الرؤى الزائفة. ومثلها مراسم الدفن، ومراسم القرابين، ومنها القرابين البشريّة، وتقديس وعبادة بعض عناصر الطبيعة كالشمس وقدرتها في الانتصار على الظلام، والنهار وانتصاره على الليل.

وقدماء الفلاسفة لم يتخلفوا عن سواهم في الإدلاء بدلوهم في هذا الميدان يقول أرسطو: «**الزمان نفسه تفكر على أنّه دائرة**» [٢٣]. وكان أفلاطون يعتقد أن تعاقب السنين مهيأ لتكرار نفسه على مدى فترة محدّدة هي مَا سمّاه «**بالسنة العظمى**» التي ستدوم (٣٦٠٠٠) سنة شمسية. ويذهب الفلاسفة الفيثاغورين إلى أن «**كل شيء سوف يعود في نهاية الأمر إلى النظام العدديّ نفسه**» [٢٤].

التطلع إلى التحكم بالزمن:

كان الإنسان يتمنى لو استطاع أن يجد وسيلة للنيل من هذا الزمن، أو التحكم في دورته، فهو الذاهب بشبابه وفتوته ومجده أحيانًا، وهو الذي يتحكم في المشاهد في سيرورته وسيرته فماذا لو تحكم هو فيه؟! وما دام لهذا الزمن دورة ودائرة، وهذه الدورة والدائرة هي التي يترتب عليها التغيير المؤدي إلى التلاشي والانحلال والموت؟

فلم لا يتحكم الفكر الإنسانيّ في هذه الدورة الزمانيَّة ليجعل منها دورة لا نهائيَّة «**ليس لها أطراف محلولة تنتهي عندها**» أو بدايات تنطلق منها؟ لم لا يعمل الفكر الإنسانيّ أن يخرج دورة الزمان باتجاه «**الإطلاق**»، ويلغي مبدأ البداية والنهاية من هذه الدائرة؟

وإذا لم يستطع الفكر الفلسفيّ الإنسانيّ أن يبلغ هذه الغاية؟ فلم لا يستعين بالفكر اللاهوتيّ في اليهوديّة والنصرانيَّة لتحقيق ذلك؟؟!

وقد كان؛ وأهم مَا قدمته الديانتان -في هذا الصدد- فكرة أن الله -تعالى- هو الذي خلق الزمان، فالزمان مخلوق، لا خالق وله نهاية كسائر المخلوقات وليس دورات متعاقبة. وهناك خط مستقيم تسير البشريّة عليه منذ الخطيئة الأولى حتى التوبة النهائيَّة. لكن الرؤية اليهوديَّة للزمان وما أدخلته النصرانيّة عليها كانت أفكارًا بشريّة قد تستند إلى تأويلات نورانيّة فأدخلت في فكرة الزمن كل تلك الشوائب التي كانت لها آثار كبيرة على مفهومهم

---

[٢٣] نفس المصدر ١٦.

[٢٤] المصدر نفسه.

للزمن، وهي فكرة النظر لمفهوم الزمن على أنّه سلسلة من المراحل تبدأ بمرحلة الخلق -كما سجلها سفر التكوين التوراتي- وتنتهي بمرحلة راحة الإنسان السماويّة مع الله –تعالى-.

واغلوا أكثر حين أدخلوا قياسًا زمنيًّا عدديًا قاسوا به تلك المراحل، وأعطوا لكل مرحلة نصيبها من السنين - حسب رؤيتهم المزيج.

التاريخ والزمن:

وهنا تداخل مفهوم «**التاريخ**» بمفهوم الزمن. وانفتح الباب أمام تداخل الفلسفات القديمة والمفهوم أو الرؤية «**اليهونصرانيّة**» فإذا بالمزمور التسعين من المزامير يقرر: «**إنَّ اليوم عند الله بألف سنة**» [٢٥] وعلى هذا فأيام الحياة الستة منذ يوم الخلق حتى اليوم السابع - يوم الراحة الأبدية هي ستة الآف سنة؛ وعلى هذا فإنَّ نهاية العالم تكون في آخر يوم من أيام السنة المكملة للآلاف الستة من يوم بداية الخلق.

وهنا انفتح للتخرصات باب لم يغلق، ولا يبدو أنّه سوف يغلق في وقت منظور[٢٦].

ولكن التوراة وقعت في إشكال آخر حينما حاولت إسقاط الأيام الستة على عصور الأنبياء وحدَّدت أعمار كل منهم وذكرت تفاصيل مَا خلق في كل يوم. ونستطيع أن نلاحظ ذلك في سفر التكوين الإصحاحات الأول والثاني والثالث والخامس والسادس[٢٧].

وفي عصرنا هذا تردد كثيرًا، خاصّة في أوساط من عرفوا «**بالمحافظين الجدد**» من النصارى أن المجيء الثاني للمسيح قد اقترب جدًا لبروز أهم العلامات السابقة لذلك المجيء

---

[٢٥] قال: «**... لأنّ ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعدما عبر وكهزيع من الليل**».

[٢٦] في الوقت الذي اتفقت فيه مصادر الديانتين اليهوديّة والنصرانيّة على أن عمر الأرض ومن عليها لن يتجاوز ستة الآف سنة من يوم خلق الله الأرض حتى النهاية غير أن خلافًا بين مصادر الديانتين برز حول مَا إذا كانت سوف تحدث بعد بناء أورشليم والهيكل بناءً جديدًا أخير -كما هي وجهة النظر اليهوديّة-. أو أن ذلك سوف يقع بعد المجيء الثاني للمسيح، حيث يأتي يوم القيامة.

وقد حفل تاريخ الديانتين بنبوءات للقادة الدينيّين حول تاريخ التدخل الإلهي، فرشحت النصرانيّة سنة (٥٠٠) ق.م وتنبأ الراهب يواقيم الفيوري .م وتنبأ الراهب يواقيم الفيوري Yoachim of fiore(١١٣٢-١٢٠٢) تقريبًا بسنة (١٢٦٠)م وذهب كثير من المتطهرين الإنكليز إلى أن سنة (١٦٦٦) هي السنة الألفية (راجع فكرة الزمن ص ٢٠) كما أن اليهوديّة تجعل المحور الأساسيّ هدم الهيكل وبنائه. والمسيحيّة تنظر إلى مَا قبل ميلاد المسيح وما بعده. وقد تنبأ لوثر بأن العالم لن يدوم أكثر من مائه عام بعد إعلانه نبوئته تلك.

[٢٧] راجع مَا سمي بالكتاب المقدس أو العهد الجديد ط وتوزيع دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

الثاني للسيد المسيح في نظرهم. وأهم تلك المعلومات قيام دولة إسرائيل، ثم إقامة الهيكل ولذلك اعتبر بعضهم أن المجيء الثاني للمسيح قد يحدث مَا بين (سنة ٢٠٠٧ وسنة ٢٠٠٩).

أمّا الذين نظروا للزمن باعتباره تاريخًا مثل «**فوكوياما**» فقد بدءوا يتحدثون عن «**نهاية التاريخ**» بما بلغته الحضارة المعاصرة من تقدم لا مزيد عليه. بناءً على رصد الفوارق الجوهريَّة بين الأزمنة الماضية والزمن الحاضر، فالوعي «**بالمفارقة الزمانيَّة**» هو مَا دفع أصحاب هذه المدرسة إلى إطلاق ذلك.

الألفيّات:

لقد لاحظنا كيف أسَّس الفكر التوراتيّ لبناء تصورات خاصَّة حول رقم (الألف) فعمر الحياة الدنيا ستة أيام، كل يوم بألف سنة مما تعدون. وإذ رفض العلم ذلك فقد لجأ أهل التأويل -منهم- إلى ابتكار فكرة المضاعفات بحيث يصبح المجال مفتوحًا ليقال: «**إنّها ستة آلاف بستين ألفًا...**» أو ... ولا يهمنا ذلك لكن المهم أنّ هذا الاتجاه قد مهَّد وهيّأ العقل الغربيّ، بل العقل الإنسانيّ -كلّه- ليكون في نهاية كل ألف مهيّأ لقبول فكرة نهاية الحياة المألوفة، وبدء ألف جديدة بقيادة السيد المسيح المخلص الذي سيحكم العالم ألف عام. وقد أدى ذلك الاضطراب في مفهوم «**الزمن**» إلى العديد من المشكلات الإنسانية الكبرى في عقائدها وانطلاقات حضاراتها وتراجع تلك الحضارات. ولذلك أعطى القرآن المجيد هذا المخلوق «**الزمن**» اهتمامًا خاصًّا، ووجهه بدقة إلى فهمه، وتحديد علاقة الإنسان به حياة وموتًا وعملًا وجهدًا. وعمل على تطهير العقل البشري من الانحرافات الخطيرة التي شابت هذا المفهوم، وانحرفت به. ولما «**للزمن**» من أهمّيّة وخطورة فلا بد للفقهاء من فهمه فهمًا سليمًا، ومعرفة حكم الخالق العظيم فيه فلا يكفي وقوف «**الأصولي والفقيه**» عند مفاهيم «**القضاء والأداء والواجب الموسّع والواجب المضيق**» فكل تلك مهمة ولكنها شرعت لبناء الوعي بالزمن وإدراك الفواصل بين «**دار العمل ودار الجزاء**».

الخلفية التاريخيَّة وآثارها الفقهيّة:

لقد قدم القرآن المجيد نفسه منذ البداية على أنّه المعجزة الوحيدة التي أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم- بتحدي البشريَّة بها وحدها- لإثبات نبّوته فهو لم يقيِّد نفسه بالسقف المعرفيّ القائم كما فعل المرسلون السابقون بل استوعب ما سبق وتجاوزه إلى ما لحق، وأعلن استدارة الزمان، وأعاد ترتيبه وتنظيمه وحسن تصنيفه، وجعله من مقومات «**الدين القيم**» وأعلن نفسه مرجعًا لكل النبوات وسائر الرسالات، واستيعابه لكل ما سبقه من كتب وصحف منزّلة ونقده لها، وتصحيحها وإعادتها إلى حالة الصدق التي نزلت بها، ثم هيمن هيمنة تامَّة على مضامين تلك الكتب والرسالات التي حملتها بحيث تعصم بعصمته، وتحفظ بحفظه و لم يوكل حفظه إلى أحبار أو ربانيِّين ولا إلى تفسيرات مفسّرين، وتأويلات متأولين، بل تكفل به العظيم العليم الحكيم؛ لأنّه آخر الكتب، نازل على خاتم النبيِّين والمرسلين في الأرض المحرّمة فهو المرجعيَّة المطلقة الدائمة للبشريّة في كل عصورها وسائر نواحيها إلى يوم الدين، لا يقبل من أحد الرجوع إلى غيره، أو اتّباع سواه.

وقد سوغ القرآن المجيد لنفسه هذا بأنّه «**كتاب كونيّ**»، مشتمل على شرعة ومنهاج، معادل للوجود الكونيّ وحركته، مستوعب لسائر ما ينجم عن تلك الحركة من تغيّرات وتطورات، متجاوز لها باعتباره كريمًا في عطائه، مجيدًا في شرفه وعليائه، مكنونًا في معانيه وقدراته.

وليثبت القرآن المجيد دعواه هذه، ويؤكد كونيَّته ومرجعيَّته للبشريّة فإنّه أعلن «**وحدة البشريّة**»، وأنّها خلقت من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وأعلن «**وحدة الأرض**» دارًا لها، وقرارًا لسائر أبنائها «**ووحدة الإلهيَّة**». و«**وحدة الحقيقة**»، و«**وحدة المصير والغاية**»، وقدم إطارًا تفسيريًا مقنعًا لكل ما قد يثير تساؤلا من مظاهر اختلاف في شيء من ذلك.

كما قدم مجموعة من القيم الحاكمة السهلة اليسيرة المقنعة –وهي «**التوحيد والتزكية والعمران**» ونبَّه إلى مجموعة من المقاصد الشرعيّة، والسنن الاجتماعيّة، وأصول الشريعة، والكليّات التي تدفع مجتمعة الإمكانات البشريّة نحو بناء «**قواعد تفكير مشترك**» يستوعب البشريّة كلّها، وتشريع عادل مخفَّف يطلق طاقات الإنسان كلها في توازن، ويزكيه ويطهره في

اعتدال، ويعمر الأرض ويصلحها، ويجنبها كل عوامل الفساد بانتظام، ويقودها إلى الغاية التي وضع الله لها في رشادة.

وقد وجه القرآن الكريم خطابه إلى البشريَّة بتدرج حكيم بدأ من إنذار عشيرة رسول الله الأقربين –محيطه البشريّ المباشر- ثم لينذر أم القرى وما حولها- محيطة الجغرافيّ المباشر- ثم أمره بالتوسع في المحيطين ليشمل المحيط البشري المجال الأوسع –العرب كلهم- ثم ليشمل المحيط الجغرافي الأشمل الجزيرة العربية كلها –ثم الشعوب الأميّة التي تخلى بنو إسرائيل عنها وقالوا: **[لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ]** (آل عمران:٧٥)، فهي الشعوب التي ما جاءها ولا جاء آباءها من نذير فبقيت شعوبًا غافلة كالكرد والفرس والهنود والبربر ومن إليهم من شعوب لم يعرف لها أنبياء ولا كتب سماويّة – حتى جاءها خاتم النبيين ليخرجها من الظلمات إلى النور. لتصبح البشريّة –كلها– بعد ذلك ذات كتاب وخارج دائرة الأميّة.

وفي كل هذه المراحل كان -صلى الله عليه وآله وسلم- يحاول استمالة أهل الكتاب ويستثير حَّميتهم الدينّية، ويذكَّرهم بالمشتركات بين رسالته وتراثهم الدينيّ وما يمكن أن يعود عليهم من إيمانهم برسالته من بعث وإحياء وتجديد لأديانهم ورسالات إخوانه من الأنبياء والمرسلين أو قد يعالج لهم كثيرًا من المعضلات التي كانوا فيها يختلفون سواء أكانوا هودًا أم نصارى، ويحاول أن يستظهر بما بيّن الإسلام وبينهم من مشتركات لإنجاز المرحلة الأولى من رسالته – ليلتفت إلى المرحلة التصحيحيَّة للأديان الكتابيَّة.

أهل الكتاب والثقافة الشفويَّة:

لم تكن محاولات رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم– وتلاوته لآيات القرآن الكريم عليهم وبيانه للمشتركات بين رسالته وأديانهم تزيدهم إلا نفورًا وغرورًا واستكبارًا. فقبائل يهود رفضته -صلى الله عليه وآله وسلم- بعد أن رفضوا عيسى –عليه السلام- وأنكروه واعتبروه المسيح الدجال وأغروا به الحكام الروم لقتله وصلبه فنجاه الله -تبارك وتعالى- منهم وتوفاه ورفعه إليه، فعادوا إلى نبوءاتهم كرة أخرى جديدة لينتظروا خاتم النبيين في المواقع التي حدّدتها تلك النبوءات لبعثته وهجرته ثم هاجروا إليها واستوطنوها أملا منهم في أن يكون خاتم النبيين منهم.

لقد نزحت قبائل يهود من مختلف المناطق إلى المدينة –يثرب– وما حولها، وإلى بعض الطرق التي كانت تربط بين مكة والمدينة بناءً على بشائر التوراة بشروا بها أنبيائهم بمجيء النبيَّ الخاتم الَّذِي يحمل للناس –كافة– رسالة الله -تبارك وتعالى-، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ويخفف عنهم الشريعة. وكان استيطانهم تلك المناطق من جزيرة العرب قبل سبعة قرون من بعثة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– كما أشرنا لقد كانوا يطمعون أن يكونوا أول من يؤمن به وبذلك يستردُّون سيادتهم الدينيَّة والزمنيَّة. والتوراة قد ذكرت لهم أهم صفات خاتم النبيين بحيث صاروا يعرفونه كما يعرفون أبنائهم، فماذا قابلت يهود ذلك –كله-؟! قابلته بتكذيب وجحود، وتأليب للقبائل عليه وتآمر، وازدراء، واغترار بتفوق دينيّ وثقافيٍّ كاذب، وادعاء بأن النبي – صلى الله عليه وآله وسلّم– قد لفق من التراث اليهوديّ قرآنا، ودينًا وادعي بذلك النبوّة ليمكّن لقبيلته وقومه ويسود العرب مستغلين كثرة المشتركات، والمشابهات لما في تراث الأنبياء –كافّة– من أركان الإيمان وقواعد الإسلام، وقصص الأنبياء وأدلة الخلق والتكوين والإبداع.

وبوحدة أمَّة الأنبياء ووحدة رسالتهم، فحوّلوا كل مَا هُوَ إيجابيّ إلى سلبيّ، ودليل مضاد، ولم يتغيرّ موقفهم المعادى جدًا له حتى النهاية يوم تم إجلاؤهم من جزيرة العرب. ولقد مارسوا كل فنون الكيد والحرب والتآمر التي قد يعدها البعض من مكتشفات العصر وهي قديمة لديهم، فقاموا بمحاولة اختراق وتفتيت الجبهة الداخلية بدفع أعداد منهم للدخول في الإسلام وجه النهار والكفر به آخره فووجهوا بوجوب قتل المرتد فأحبطت المحاولة وحاولوا اختراق الذكر ففشلوا فشلًا ذريعًا لعصمة الكتاب بالإعجاز والنظم والأسلوب والفصاحة والبلاغة. وحفظه وتداول آياته، وكثرة حامليه، بحيث صارت محاولات اختراقه أو تحريفه نوعًا من العبث

وحاولوا اغتيال رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم– مرات فلم يفلحوا. وحاولوا وضع السمّ له فعصمه الله -تبارك وتعالى- – وحاولوا الطعن في عرضه فطهره الله -تبارك وتعالى- وحاولوا إثارة الفتن الداخليّة والأزمات الاقتصاديّة فنجاه الله -تبارك وتعالى- ثم استخدموا الحروب الخارجيَّة فباءت كل تلك المحاولات بالفشل.

كما باءت محاولاتهم ضد عيسى –عليه السلام– بالفشل وهو من أبنائهم وجاء ليصدق على التوراة وشريعتها، ويخفف عنهم بعض الشديد من أحكامها. ويجدّد لهم دينهم بناءً على ميثاق سابق واثقهم الله -تبارك وتعالى- به، وبشارات توراتيّة كثيرة فقابلوه بالجحود والإنكار وتحريض الحكام الرومان عليه، وآخرها محاولة قتله صلبًا، فنجاه الله -تبارك وتعالى- منهم وتوفاه ورفعه إليه. وبقطع النظر عن الشذرات التاريخيّة التي وردت عن تاريخ ذلك الصراع المبكر في التاريخ أمثال تاريخ ذلك المجهول «**أبي قرّه**» وتاريخ «**حنّا الدمشقي**» أو غيرهما فإنّ بين أيدينا –بفضل الله- أصدق نص عرفته الإنسانيّة في تاريخها –كلّه– وهو القرآن الكريم يعلن –بوضوح– الفرق الكبير بين موقف يهود وموقف النصارى من الإسلام ومن خاتم النبيّين – صلى الله عليه وآله وسلّم– قال تعالى: **[لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ]** (المائدة:٨٢) ويمكن أن يضاف إلى تعليل القرآن الكريم لاختلاف موقف النصارى عن موقف يهود كون نصارى الجزيرة العربّية خاصّة عربًا، وأن مَا جاء في القرآن المجيد عن عيسى وأمّه والإنجيل وهدايتّه، والمشتركات بين الإسلام والمسيحيّة استقبل كما أشارت «**آية سورة المائدة**» والآيات بعدها استقبالًا حسنًا، وخلافًا لأحبار يهود وجد قساوسة النصرانّية ورهبانها فيما اشتمل عليه القرآن الكريم تجديدًا للمسيحيَّة يستنصرون بها على يهود فكان من الطبيعيّ أن يكون موقفهم وديًّا من الإسلام الَّذي قلّص النفوذ اليهوديّ إلى أدنى حد، وعامل النصارى بتسامح كبير. ولذلك بدأت وفودهم تأتي المدينة المنورة لنوع من المثاقفة أو مَا يسمي اليوم (faethnter) فيجدون من رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم– كل إكرام وترحاب. ومن النماذج على ذلك، مَا فعله – صلى الله عليه وآله وسلّم– مع وفد نجران الذين نصب لهم خيمة في مسجده وصار يخدمهم بنفسه، ورفض أن يقوم على خدمتهم غيره؛ لأنّه اعتبرهم ضيوفه الشخصيِّين.

وتجدر الإشارة إلى الاختلافات الكثيرة التي حدثت بين «**النصرانيَّة الشرقِّية**» التي يغلب عليها القول «**بالطبيعة الواحدة**» للسيد المسيح وبين الكنائس الغربيَّة التي تأثرت باليهوديَّة ومواقفها من الإسلام بشكل مباشر وغير مباشر: فصارت تنظر إلى الإسلام على أنَّه

نحلة ملفقة من أديان أخرى، وإلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- على أنّه «**المسيح الدجال**» الَّذي حذرت منه النبوءات، وحذّرت من تصديقه والاغترار به وصايا الأنبياء واستطاعت اليهوديَّة التي لم تفلح في تغيير وجهة نظر الكنائس الشرقيَّة إلى المشتركات التي يقدّمها القرآن الكريم والنبيّ أن تحدث ذلك التغيير في الكنائس الغربيَّة لتصبح تلك المشتركات بدلًا من أن تكون تعبيرًا عن الأرضيّة المشتركة دليلًا عندهم على السرقة والالتفاف والتلفيق... من هنا هيّأت الكنائس الغربيَّة للتحالف مع الملوك والأباطرة والقادة المسيحيِّين لا ضد الإسلام والمسلمين فقط بل ضد تلك الكنائس الشرقيَّة المنحرفة -في نظرها- عن المسيحيَّة الحقّة - أيضًا - وأعطت تلك المحاولات أخيرًا -ثمارها المرّة «**بالحروب الصليبيَّة**» التي سمّاها أسلافنا: «**بحروب الفرنجة**» وأسموها هم «**بالحروب الصليبيَّة**» ووقعت في نهاية الألف الأولى- وللألفيات في التراث الدينيّ والثقافيّ موقع شديد الخطورة -أشرنا إلى بعضه فيما سبق- وليس هذا موضع التفصيل المسهب فيه.

الألفيّات في بعض جوانب التراث الدينيَّ:

قبل الاسترسال في بيان شيء من تفاصيل الموقف الغربيّ المعاصر من النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلّم- والقرآن المجيد والإسلام لا بد لنا من وقفة قصيرة على فكرة «**الألفيات في التراث الدينيّ**».

الترغيب والترهيب:

هناك فن من فنون الدعوات عامَّة، ومنها الدعوات الدينيَّة هُوَ فن «**الترغيب والترهيب**»، والأصل الدينيّ لهذا الترغيب والترهيب هُوَ صفتا «**البشارة والنذارة**» المصاحبتين للنبوَّات والرسالات والكتب والصحف التي نزلت عليهم وخاطبوا الناس بها، ولكنَّ الأنبياء والرسل لا يبشرون الناس إلا بحق، ولا ينذرهم إلاّ بحق، أمّا الدعاة والوعاظ والقصّاصون بعدهم فكثيرًا مَا يدفعهم حرصهم على التأثير الشديد في الخيال الشعبيّ، وكسب الأنصار والمستمعين إلى التوسَّع في ممارسة ذلك الأصل مَا شاء لهم التوسَّع مسوغين ذلك بأن الزمان قد فسد وأنّ - القلوب قد قست، والمعاصي قد فشت ولذلك فإنّ الترغيب والترهيب يكونان الطريق الأكثر فاعليّة في التأثير في الناس وإعادتهم إلى الدين والتديّن - وهؤلاء قد يبيحون لأنفسهم وضع الأحاديث ونسبتها إلى الأنبياء أو إدخال زيادات وإضافات على

الصحيح، أو تقوية الضعيف أو ترجيح المرجوح، أو سلوك آية وسيلة من وسائل المبالغة وربما الدس والكذب وقد يستفيدون من الرواية بالمعنى، وأحيانًا يقدمون لنصوص قطعيَّة أو ثابتة تأويلات وتفسيرات أو يحيطونها بمناسبات مفبركة مدعاة ليحقّقوا مَا يريدون، وتعتبر الأحلام والمنامات التي تنسب إلى الصالحين والمشهورين بالتقوى مصدرًا من أهم مصادر هؤلاء. وتاريخنا الفكريّ قد حفل بالكثير من هؤلاء، وقد أساءوا إلى تراثنا إساءات بالغة.

ولقد بلغ الحال ببعضهم حد الاحتراف بحيث اتخذوا عمليَّة الوضع والفبركة حرفة احترفوها، واشتهروا بها ولهم طرائف ونوادر كثيرة. ومن الموضوعات الأساسيّة التي شغف هؤلاء بها قضايا «**التكوين وبداية الخلق، وقضايا الوحدات الزمانيّة: سبع سنوات ومضاعفتها وقرن أو ألف سنة**»، وربط ذلك بأعمار الأمم والدول ويوم القيامة وحرب الحضارات. وما إلى ذلك من أمور حفل بها التراث الخرافيّ للحضارات القديمة، وخاصة التراث الإسرائيلي وبشكل أخص في مرحلة السبي البابليّ حيث اختلط السحر والخرافة والأساطير بالتراث الدينيّ اليهوديّ الشفويّ بشكل لم يعد فيه ممكنًا بين هذا وذاك.

وحين نضيف إلى ذلك أنّ الإنسان «**طُلَعَةٌ**» بطبيعته يتطلع إلى معرفة مَا يجهل ويشكّل المستقبل –بالذات– له تحديًّا كبيرًا بحيث يصبح ضعيفًا أمام احتمالاته، مهيَّئًا للاستماع إلى أي شيء يفسَّر به شيئًا من تساؤلاته حوله خاصّة أيام الأزمات، وكانت التوراة التي ألفها عزرا في بابل –بعد أن قضى البابليّون على الذاكرة التاريخيَّة اليهوديَّة والتراث اليهوديّ– أو كادوا عبارة عن أقوال شفويّة، وما بقي في ذكريات وأذهان اليهود من تراث يهوديّ جمعها عزرا مع مَا استوحاه من ملحمة «**كلكامش**» البابليّة وثقافة السحرة البابليّين – وقد نبَّه القرآن المجيد إلى ذلك في الآية **[وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ]** (البقرة:١٠٢)، وقدم عزرا لقومه ذلك كلّه على أنّها التوراة التي أنزلت على موسى –عليه السلام- وقد ورد في هذه التوراة بشكل رمزيّ أن نهاية العالم

بعد عودهم من السبي لن تتجاوز (٣٠٠٠) ثلاثّة آلاف سنة، وذلك في المزمور (رقم ١٠٢ إصحاح ٢٠-٢٦) من العهد القديم أمّا نبوءة أشعياء فكانت تشير إلى أن نهاية العالم ستكون بعد (٢٥٠٠) سنة (أشعياء ١٩: ٢٤-٢٢) أمّا بولس في العهد الجديد فقد قدر نهاية العالم بـ (٢٠٠٠) سنة بعد الصليب كما في (٧ اكو: ٣١). لقد شقت الإسرائيليات القديمة طريقها إلى الفكر النصرانيّ بأشكال مختلفة بحيث لم ينج منها مصدر من مصادر النصرانيّة. أمّا مع الإسلام فقد كان الأمر مختلفًا، فهي إذ أعياها القرآن الكريم أن تقترب بذلك التحريف إلى رحابه فقد اقتحمت التراث الإسلاميّ من خلال تغلغلها في التفسير بأنواعه وأشكاله، والتاريخ – بأنواعه كذلك، والأحاديث والآثار الموضوعة، وقصص الأنبياء، بل وبعض قواعد الأصول والفقه إضافة إلى كم هائل من القصص الخرافيَّة عن القيامة ومنامات نسبتها إلى أنبيائهم. كما أنّ الإسرائيليات القديمة والجديدة قد شقت طريقها إلى معظم المعارف والعلوم الاجتماعيّة والإنسانيَّة المعاصرة وبخاصَّة التاريخ والجغرافيا، ودراسات الأديان والحضارات والنبوءات وما إليها وقد دخلت إلى العلوم السياسيّة، والدراسات المستقبليّة. وقد استطاعت هذه الإسرائيليات والأنثرويولوجي في الماضي وفي الحاضر أن تكون ثقافة شبه عالميَّة في مجالات معيّنة وقد تغلغلت بأشكال مختلفة في ثقافات بعض الشعوب على مستويين: مستوى خيال شعبيّ، ومستوى مدرسيّ؛ ذلك لأنّ مصادر اليهوديّة شغوفة بالتفاصيل الدقيقة عن كثير من المفاصل التاريخيّة مثل تكوين الأرض وخلق آدم وحواء وإخراجهما من الجنة والطوفان وسائر الأحداث وقد يتبنّاها ويرددها حتى إذا لم يكن مقتنعًا بها، لغرابتها أو لطرافتها أو لأي سبب آخر، لأنها تعطي تفسيرًا لما لا يمكن تفسيره بعبرها. وإذا لم تجد القبول في جيل فقد تجده في جيل آخر. وإذا رفضها ناقد فقد يتقبلها ناقد آخر وهكذا تشق طريقها لتتحول إلى جزء من تراكمات المعرفة البشريَّة التي قد يتسنى أصلها، وقد لا يجد الباحثون دوافع للبحث عن ذلك الأصل؛ لأنها قد تأخذ شكل مسلمات معرفيَّة متداولة.

أطوار الزمن:

ومن أخطر الأفكار التي أثرت في مسيرة البشريّة قديمًا وحديثًا «**قضيَّة الزمن**» حقيقة وماهيّة وسيرورته، وعلاقة ذلك بالكون والإنسان والحياة والموت والدنيا والآخرة.

وبرزت في القديم نظريَّتان: انبثقت أولاهما عن الفكر الوثنيّ الَّذِي تسرّل إلى التراث الإغريقيّ والرومانيّ والهنديّ وتبنّتها المجوسيَّة زكت إليها من ديانات وضعيَّة. وهذه النظريّة عند هؤلاء -كلّهم- تقوم على اعتبار «**الزمن**» حلقة دائريَّة أو عجلة تدور فهو مثل رول أو دائرة القمار في حركته المستمرة، ووقوفها أحيانًا -وإن كانت عجلة الزمن لا تتوقف فهي دائرة على الدوام- لا يغيرّ لو حدث من دائرتيها. ومن هنا فقد نفي أصحاب هذا الاتجاه الدار الآخرة، كما نفوا وجود إله منفصل عن الإنسان وعن الطبيعة معًا، وجاءوا بأسس ودعائم العبث الجاهليّ والعدميّة، ونشأت عن ذلك أفكار وثنيَّة جاهليّة عديدة، منها وجود إلهين اثنين: إله للنور وآخر للظلمة. أو النظر إلى الدهر على أنّه آله أو ظرف له، وأمّا الموت فقد نفوه وقالوا «**بتناسخ الأرواح**» وفي الجانب الأخلاقيّ ترتَّب على ذلك إباحيَّة مطلقة إلا من قيود يضعها الملوك أو الكهنة أو كلاهما لحماية مَا يريدون حمايته بحسب أهوائهم.

وجاء الأنبياء والرسل ليصحّحوا مفهوم «**الزمن**»، ويقدموا للبشريَّة البديل عن ذلك المفهوم المنحرف. ولذلك كان سيدنا إبراهيم في حواره مع نمرود يتحدّاه بأن يغيَّر في الزمن، ويأتي بالشمس من المغرب لا من المشرق إن كان إلهًا كما يدعي، كما أنّه لفت الأنظار بشدة إلى الكواكب وبيّن عدم صلاحيَّة أيّ منها لأنّ يكون إلهًا أو موضع حلول الإله، لأنّها -كلها- تعجز عن القيام بذاتها لأفولها ونقصها فكيف يمكن أن تقوم بسوارها؟! وتتابع الرسل بعده يوضحون لأقوامهم فيما يوضحون من قضايا الخلق والتكوين، ونشأة الكون والإنسان والحياة أن «**الزمن**» خلق من خلق الله بدأ من نقطة معيَّنة وهو سائر في الخط الَّذِي رسم له نحو غاية ونهاية حدّدها خالق الكون والإنسان والحياة ذاتها ونزلت النبوّات لتعالج في ضوء مفهوم الزمن أخطر المسائل العقيديّة -وهي مسألة قِدَم الخالق تبارك وتعالى- أو الأزليَّة ومسألة حدوث «**العالم والخلق كلّه**». كما عالجت الأمور الفيزيقيَّة من حيث ارتباط الزمان بالحركة والتغيُّر والمكان، وما إليها. كما جرت معالجة الأبعاد الميتافيزيقيّة من حيث علاقة الزمان بأصل الموجودات، ونشأة الكون، والسببيَّة والعليَّة والأزليّة والأبديّة ونحو ذلك. فمن المهم أن نورد لكم أن هناك قضايا عقيديّة كثيرة وقضايا عباديّة وعمليّة قد ارتبطت بمفهوم الزمن ورسول الله مُحَمَّد -صلى الله عليه وآله وسلّم- ألغى النسئ الجاهليّ، وبيّن عدة الشهور كما في آيات سورة التوبة **[إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ**

اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ {٣٦} إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ] (التوبة:٣٦-٣٧) وأعلن أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله -تبارك وتعالى- السموات والأرض، وجرده من سائر الإضافات التي راكمتها الجاهليّات المختلفة فكانت حجر الأساس لتأسيس العمران الإسلاميّ الإنسانيّ، وبدء دورة تجديد وتحديث على مستوى البشريّة كلّها.

أما الفلسفات التي برزت بعد ذلك في أوروبا فقد نحت منحى يبدو فيه التأثر بالاتجاهين السابقين إلى حد مّا. فبعضها وضع «**الزمان**» داخل الإنسان إن صح التعبير بواسطة التاريخ، وبعضها وضعه ضمن الأشياء من خلال ربطه بالتطور. وبالزمن ربطت الحتميّات التاريخيّة، وأعطيت نهاية الزمن تصورات أيديولوجيّة كل بحسب أيديولوجيّته.

أما تراث النبوات فلم يسلم من تأثير الفكر البشريّ فيه وتأملاته ونظراته التأويليّة. ففي التوراة تناول سفر التكوين بدايات الزمن والخلق والتكوين، وبقي الخط متجهًا نحو الغاية ليتوقف قبل النهاية عند دور يهوديّ هام يلعبه هذا اللعب بالرجوع إلى أرض الميعاد وإعادة بناء الهيكل، واستقبال المسيح وما يترتب على ذلك من صرا عات ونزاعات وآثار على العلاقات بين المنتمين للأديان الثلاثّة.

وحين جاء السيد المسيح –عليه السلام– رفضه اليهود –كما أسلفنا– وأنكروا أنّه المقصود بتلك النبوءات، وانقسموا بنا على ذلك إلى قسمين: قسم ضئيل العدد ومحدود، وهم الذين آمنوا به وقبلوه، وتحولوا إلى أنصار له وحواريِّين، حملوا رسالته وحاولوا نشرها، وعنهم انتشرت. وقسم رفضوه وأنكروه وألّبوا مندوبي القيصر عليه، لقتله وصلبه، وقد نجاه الله - تبارك وتعالى- من ذلك كما هُوَ معروف في القرآن الكريم. وهؤلاء تمسَّكوا بأن المنتظر لديهم هُوَ الماشيَّح (وليس المسيح عيسى ابن مريم) والعقيدة المشيحانيَّه – هي: الإيمان بأن الماشيَّح سيظهر في نهاية الزمان ونهاية التاريخ ليملأ الدنيا عدلًا، ويؤسس مملكة صهيون التي ستكون الفردوس الأرضيّ. وهذا الماشيَّح ينبغي أن يكون من نسل داود، وسيبطش بأعداء

اليهود ويحكم باليهود العالم لألف سنة تزيد قليلًا أو تنقص قليلًا لتتم الآلاف الثلاثّة التي سبقت الإشارة إليها. ومن الطريف أن الحركة الصهيونيَّة في بدايتها ومن أجل الترويج لنفسها بين اليهود ادعت حلول روح الماشيَّح فيها.

أما موقفهم من خاتم النبيِّين –صلى الله عليه وآله وسلّم- فقد سبق أن لخصناه فيما تقدم.

أما النصرانيّة فمع قبولها بالسيد المسيح وقبولها بالفكرة الدينيّة عن الزمن لكن بما أنَّ المسيح قد صلب في نظرهم؛ و لم يعط الفرصة ليملأ الأرض عدلًا، ويقيم مملكة الرب الأب لمدة ألف عام فقد عدوا صلبه –بزعمهم – فداءً إلهيًا لخطايا البشر، وزعموا أنّه قام من قبره بعد ثلاثّة أيام في روايات غاية في الاضطراب ليجتمع بتلامذته، ونزلت عليهم مائدة السماء بدعوته وليخبرهم بأنه سيغيب عنهم ثم يعود من غيبته ليملأ الأرض عدلًا يقيم مملكة الرب، وينصر العالم وأن اليهود سيؤمنون به.

ولما هيمنت العلمانيّة على أوروبا لم تستطع القضاء على هذه المعتقدات، فحاولت قراءتها قراءة علمانيَّة فجاءت بأفكار التقدم والتطور نهاية التاريخ والروح التي تبحث عن تجل لها عبر التاريخ كلَّه واللحظة التاريخيّة، والحلول الَّذي يعد ترجمة للتراث الّلاهوتيّ وغيره.

تلخيص جذور ومظاهر الصراع:

إذا أردنا تلخيص صراع الماضي بين المسلمين والغرب بعد تلك الفترة[٢٨]، فـيمكن القول: إنّ الغرب «**الإغريقيّ**» و«**الرومانيّ**» قد فرض على الشرق احتلال الأرض، ونهـب الثروات، وقهر الديانات والثقافات عشرة قرون – من «**الإسـكندر الأكـبر**» (٢٥٦ – ٣٢٣ق. م) في القرن الرابع قبل الميلاد، في القرن الرابع قبل الميلاد، ألي «**هرقـل**» (٦١٠ – ٦٤١م) في القرن السابع للميلاد، فكانت الفتوحات الإسلاميّة تحريرًا لضمائر الشرقيّين مـن هذه الفتنة في الدين، ومن القهر الثقافيّ والحضاريّ، وتحريرًا للأوطان والثروات مـن هـذا العدوان والاحتلال والنهب والاستغلال.

ولأن هذا الغرب –كمشروع استعماري– طامع في الشرق وثرواتـه، وفي احتـواء ثقافات شعوبه وحضاراتها، لتأييد الاحتلال والاستغلال، فلقد اعتبر تحرير الإسلام للشرق من القهر «**الروماني – البيزنطي**» بداية «**لمشكلة**» هذا الغرب –المزمنة– مع الشرق الإسلاميّ، كما قال القائد والكاتب الإنجليزي الجنرال جلوب باشا (١٨٩٧ – ١٩٨٦م): «**إن تـاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنّما يعود إلى القرن الرابع للميلاد، فلقد كانت عيون المطـامع الاستعمارية الغربيّة موجهة دائمًا وأبدًا إلى محاولات استعادة الهيمنة الغربيّة علـى ديـار الإسلام، وإلى كسر شوكة المقاومة عند المسلمين المتمثلة في الإسلام**».

وعبر هذا التاريخ من التحديات تكسرت على أرض الشرق الإسـلاميّ موجـات وموجات من العدوان الغربيّ، حتى لقد تحـول الـشرق الإسـلاميّ إلى مقـبرة لموجـات وإمبراطوريّات الغزاة الغربيّين.

فالموجة الاستعمارية الصليبية –التي تشاركت فيها كل أوروبـا– بقيـادة الكنيـسة الكاثوليكية، وتمويل المدن التجارية الأوروبيّة. وسيوف فرسان الإقطاع الأوروبـيّين، والـتي دامت قرنين من الزمان (٤٨٩ – ٦٩٠هـ - ١٠٩٦ – ١٢٩١م) قد انتهت بالهزيمة المنكرة

(٢٨) هذا التلخيص – هو تلخيص الأستاذ الدكتور محمد عمارة الذي نشره في مقالته في مجلة النور.

عندما فلّت الفروسيّة الشرقيّة – الأيوبيّة – المملوكيّة – قلاعها، وهدمت حصونها، وأزالت كل آثارها[٢٩].

والموجة التتريّة، التي جاءت إلى الشرق الإسلاميّ، بدعوة من الصليبيين – الذين تحالفوا مع الوثنية التتريّة ضد الإسلام، والتي عاثت فسادًا ودمارًا ضرب بهما المثل في التاريخ. وذلك عندما دمرت الثقافة، وأسالت الدماء أنهارًا[٣٠] هذه الموجة التتريّة قد ذاقت الهزيمة في عين جالوت (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) ثم انتهت بدخول التتر في الإسلام وتحولهم إلى سيوف للإسلام.

ومنذ سقوط غرناطة ونجاح الصليبية الأوروبيّة في اقتلاع الإسلام وحضارته المشرقة من الأندلس (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م) بدأت مرحلة جديدة في هذه الحرب الاستعمارية – الصليبية ضد الشرق والإسلام.

بدأت بالالتفاف حول العالم الإسلاميّ، واحتلال أطرافه الآسيوية، ثم ثنَّت بغزو قلب العالم الإسلاميّ، الوطن العربيّ، منذ الحملة الفرنسية، التي قادها «**بونابرت**» (١٧٦٩ – ١٨٢١م) على مصر (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م) وإبان هذه المرحلة، تميز التحدي الغربيّ الحديث عن الحقبة الصليبية الأولى بالغزو الفكريّ المصاحب لاحتلال الأرض ونهب الثروة، وهو تحد لم يكن موجودًا في الحقبة الصليبية الأولى: التي قادها كنيسة جاهلة، وفرسان إقطاع، صدق فيهم وصف الأمير الفارس الكاتب أسامة بن منقذ (٤٨٨ – ٥٨٤هـ - ١٠٩٥ – ١١٨٨م) عندما قال عنهم: «**إنَّهم بهائم، ليس لديهم سوى فضيلة القتال**»!!

ذلك أن الغزوة الغربيّة الحديثة قد جاءت مسلحة بأدوات النهضة الأوروبيّة الحديثة وإنجازاتها الفكريّة – بالرأسمالية الإمبريالية، وبالليبرالية الرأسمالية، وبالثقافة العلمانيّة وبالفلسفة الوضعيّة والماديّة اللادينيّة - فمثلت مع احتلال الأرض ونهب الثروة غواية التغريب للعقل والتبعيّة في الثقافة، بل وحتى التنصير في الدين، ذلك الَّذِي حاوله المنصرون، مثلت الغزوة الغربيّة الحديثة كل ذلك في ديار الإسلام.

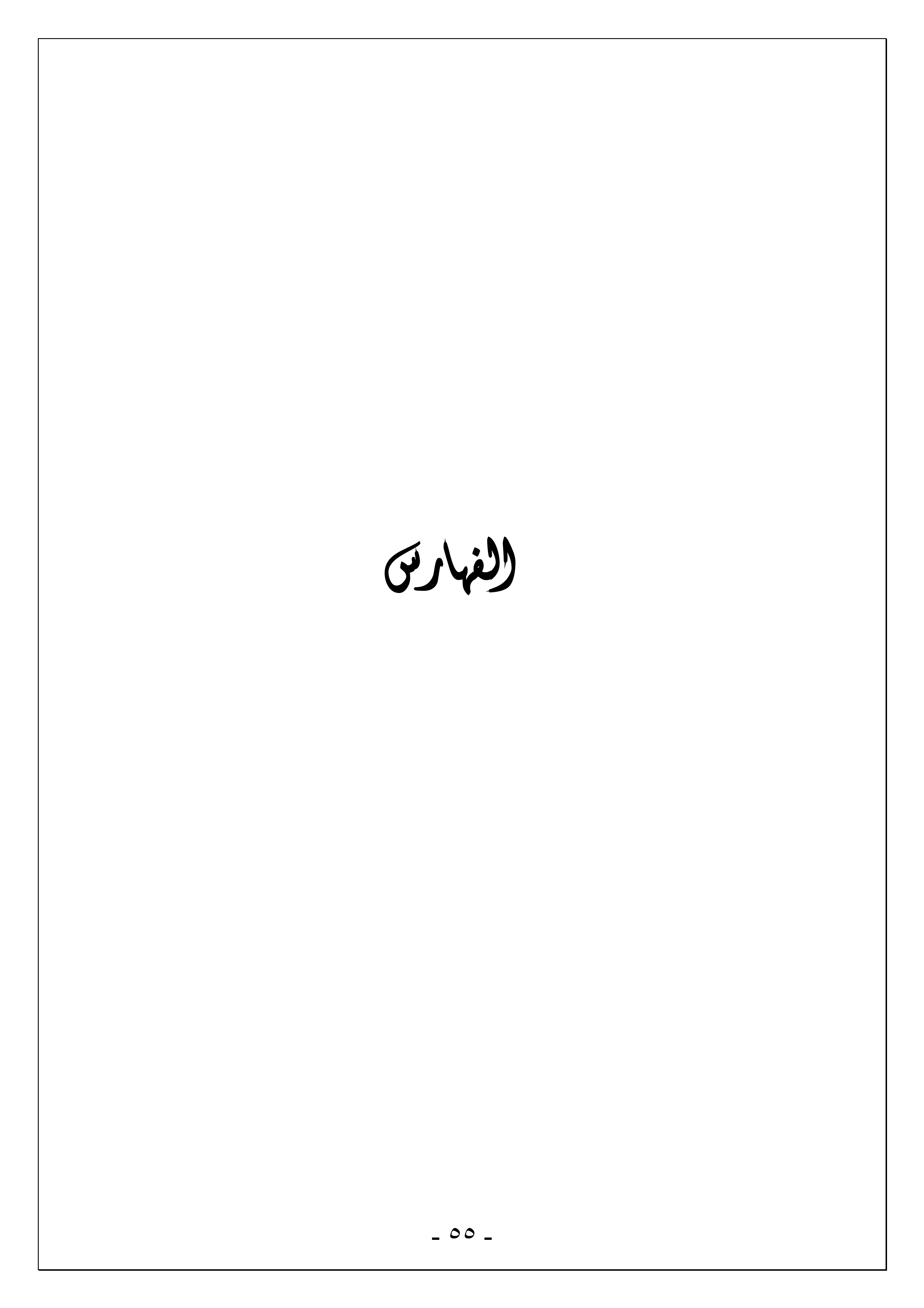
---

[٢٩] ومن الجدير بالتأمّل أن ذلك قد حدث على رأس الألف الأولى، ولعل المتأمّل يجد ارتباطاً بين ما حدث على رأس الألف الأولى وما يجري الآن على رأس الألف الثانية. ولله في شئون خلقه.

(٣٠) ويمكن التأمل والمقارنة بين تدمير الذاكرة التاريخية للأمة الإسلامية بإلقاء المكتبات في نهر جله ليختلط الحبر والدم. ونهب الذاكرة التاريخية للإقليم العراقي.

وإبَّان هذه الموجة، الممتدة حتى صورها المعاصرة: «**عولمة**» الإمبريالية الأمريكية المتحالفة مع العنصرية الصهيونية، مثَّل الشرق الإسلاميّ مقبرة الإمبراطوريّات الاستعمارية الغربيّة — الإنجليزيّة، والفرنسيّة، وأشباه الإمبراطوريّات مثل: البلجيكيّة، والبرتغاليّة، والهولنديّة، والأسبانيّة، فطوت المقاومة وحركات التحرر.

كيف يمكننا الآن رصد عوامل الاستمرار، وآليات التغيير في الواقع العالميّ المعاصر؟ ينبغي الرجوع إلى مَا ألحقناه «**بفقه الواقع**» قبل صفحات قليله للإجابة عن هذا السؤال فهو وإن كان وثيق الصلة «**بفقه الواقع**» فإنّه وثيق الصلة كذلك في «**مفهوم الزمن**» والله - تبارك وتعالى- ولي التوفيق.



الفهارس

أولا: فهرس الآيات القرآنية

(أ)

- [إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ{١}لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ] (الواقعة:١-٢).

- [أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ] (يونس:٥١).

- [إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ {١} لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ] (الواقعة ١-٢).

- [أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ] (يونس:٥١).

- [أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ] (هود:٨١).

- [إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (هود:٥٦).

- [إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا] (المزمل:٥).

- [إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ {٣٦} إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ] (التوبة:٣٦-٣٧).

(ذ)

- [ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا] (البقرة:٢٧٥).

(س)

- [سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ] (المعارج:١).

(ف)

- [فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا] (الحج:٣٦).

- [فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا] (النساء:١٠٠).

- [فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا] (النساء:٧٨).

- [فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ] (الحاقة:١٥).

(ق)

- [قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى] (طه:١٢٠).

(ك)

- [كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ] (يونس:١٠٣).

- [كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ {١٥} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ] (العلق:١٥-١٦).

(ل)

- [لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ] (التوبة:١٢٢).

- [لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ] (يونس:٥).
- [لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ] (الأنعام:٩٧).
- [لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ] (آل عمران:٧٥).
- [لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ] (المائدة:٨٢).

(م)

- [مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ] (الفتح:٢٩).

- [مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ] (الجاثية:٢٤).

(هـ)

- [هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ] (الإنسان:١).

(و)

- [وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ] (النور:٣٩).

- [وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا

يَرْجُونَ نُشُورًا] (الفرقان: ٤٠).

- [وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ] (النمل: ٨١).

- [ووَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا] (النمل: ٨٥).

- [وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ] (النمل: ٨٢).

- [ووَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ] (النمل: ٨٥).

- [وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ] (الأنبياء: ١٠٥).

- [وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ] (البقرة: ١٢٩).

- [وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلا بَلِيغًا] (النساء: ٦٣).

- [وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا] (البقرة: ٢٧٥).

- [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ {٧٤} وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ {٧٥} فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ {٧٦} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ {٧٧} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ {٧٨} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {٧٩} وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ {٨٠} وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ

سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨١} الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ {٨٢} وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {٨٣} وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ] (الأنعام:٧٤-٨٤).

- [وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] (البقرة:١٠٢).

ثانيا: فهرس الموضوعات

- أهل الكتاب والثقافة الشفويَّة.
- الألفيّات في بعض جوانب التراث الدينيِّ.
- الترغيب والترهيب:
- أطوار الزمن.
- تلخيص جذور ومظاهر الصراع.

طه جابر العلواني

- ولد في العراق عام ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥.
- ليسانس كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٧٨ هـ -١٩٥٩.
- ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨.
- دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣.
- شارك في تأسيس المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ في الولايات المتحدة عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ ثم ترأسّه مدة عشر سنوات ١٩٨٦_ ١٩٩٦م.
- رئيس جامعة قرطبة في الولايات المتحدة منذ ١٩٩٦ وحتى الآن.
- عضو مجمع الفقه الإسلاميّ الدوليّ بجدة ورئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية.

آثـــــــــاره

- المحصول من علم أصول الفقه، ستة مجلدات.الإمام فخر الدين الرازي. بيروت: دار الرسالة،
- نحو التجديد والاجتهاد، جزءان. القاهرة: دار تنوير، ٢٠٠٨.
- أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- الجمع بين القراءتين. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- الوحدة البنائية للقرآن المجيد. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.

- نحو موقف قرآني من النسخ. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- مقدمة في إسلاميَّة المعرفة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- لا إكراه في الدين. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- مقدمة في إسلامية المعرفة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- مقاصد الشريعة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- نحو منهجية معرفية قرآنية. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.

منى مُحَمَّد عبد المنعم أَبُو الفضل

١٣٦٦-١٤٢٩هـ

١٩٤٥-٢٠٠٨م

- ولدت في القاهرة نوفمبر ١٩٤٥.

- دكتوراه العلوم السياسيّة، جامعة لندن، ١٩٧٥.

- أستاذ العلوم السياسيّة، كليّة الاقتصاد والعلوم السياسيّة، جامعة القاهرة من ١٩٧٥ حتى انتدابها إلى الولايات المتحدة ١٩٨٤ لبرنامج "فول برايت" ثم انتدبت أستاذًا زائرًا باحثًا في المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ من ١٩٨٥ حتى ١٩٩٥، ثم عينت أستاذًا متفرغًا في جامعة العلوم الاجتماعية والإسلاميّة من ١٩٩٦ حتى ٢٠٠٣، ثم عادت إلى جامعة القاهرة أستاذًا للنظريّة السياسيّة حتى تاريخ وفاتها. .

- مؤسّس ورئيسة جمعية دراسات المرأة والحضارة.

- تعتبر أهم من أعطى منهجًا لدراسة الفكر الغربيّ ونقده يرقى بها إلى مستوى كثير من الفلاسفة الغربيّين في هذا المجال.

- تعتبر أول من أصل للمنظور الحضاريّ وطرحه كاقتراب منهاجيّ في دراسة العلوم السياسيّة، وتعد كتاباتها منهجًا لأصول التجدد الحضاريّ في حقول فكريّة وعلميّة مختلفة، تلتقي في مجموعها حول محدّدات منهجيّة تقوم على الاستيعاب والتجاوز.

- أصلت لفكرة المثاقفة وكيفيّة إيجاد سبل للتداخل الثقافيّ تقوم على أسس فلسفيّة تتجاوز عمليّات الاستعلاء وإذابة ثقافة مهيمنة لخصوصيات الثقافات الأخرى وجعلت الموجهات القرآنيّة والتصورات الفلسفيّة القائمة على وحدة الإنسانيّة في المبدأ والسيرورة والمصير دعائم لذلك التداخل بحيث تصبح كل ثقافة رافدًا للإنسانيّة يقدم أفضل مَا لديه فتجتمع الإنسانيّة على ثقافة سواء وأصول حضاريّة مشتركة.

- زوجة أ. د. طه جابر العلواني ورفيقة دربه في مسيرة البعث العلميّ والمعرفيّ والثقافيّ للأمّة المسلمة.

- آثارها:

- النظم السياسيّة العربيّة. (لم يطبع بعد)
- الأمّة القطب (طبع ثلاث مرات).
- نحو منهاجيّة علميّة لتدريس النظم السياسيّة العربيّة (طبع مرتين).
- سيرة ذاتيّة لوالدها د. زهيرة عابدين "أم الأطباء المصريين" (نصفه بالعربيّة ونصفه بالانجليزية).

- Alternative Perspectives: Islamic from Within.
- Contrasting Epistemic: Taw hid, Social Science, and the Vocationist.
- Paradigms in Political Science Revisited.
- Islam and the Middle East.
- Cultural Parodies and Parodizing Cultures.
- Where East Meets West: The west on the Agenda of the Islamic Revival.

- انتقلت إلى رحمه الله بعد معاناة طويلة مع مرض السرطان في عصر يوم الثلاثاء ٢٣ رمضان المبارك الموافق ٢٣ سبتمبر٢٠٠٨ وذلك في مستشفى رستن في ولاية فرجينيا، وتم تشييعها ودفنها يوم ٢٤ من رمضان بعد صلاة الظهر في المقبرة الإسلاميّة هناك وقد شارك في تشييعها الآلاف من قرائها وطلابها وزملائها الذين يعرفون لها قدرها من مسلمين وغيرهم.

الصفحة قبل الغلاف

بعد أن أتمّ الكاتبان أ.د.منى أَبُو الفضل وزوجها أ.د.طه جابر العلواني الكتاب واستعرضاه بشكل تام، وأعدّاه للنّشر، اشتدّ مرض السرطان الّذي كانت د.منى تعاني منه عليها، ودخلت في غيبوبة امتدّت عدة أسابيع عانت فيها من الآلام مَا نسأله سبحانه أن يجعله كفارة وطهارة ورفع درجات عنده ثم انتقلت – تغمدّها الله برحمته- إلى الدار الباقية عصر يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان المبارك ١٤٢٩هـ الثالث والعشرين من سبتمبر ٢٠٠٨م بمستشفى رستن في فرجينيا – أمريكا- ودُفنت بعد صلاة ظهر الأربعاء في المقبرة الإسلاميّة في سترلنغ بعد أن صلّى عليها المئات في المركز الإسلاميّ "آدمز" وشيّعها الآلاف من تلامذتها وعارفي فضلها. نسأله سبحانه أن يتقبّل منها ومن زوجها هذا العمل العلمى الجليل، وسائر مَا قدّماه ويجعل ثواب ذلك دائمًا متصلاً لهما إلى يوم الدين. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ورقة الغلاف الأخيرة

هذا الكتاب

تناول المؤلفان فيه عددًا من المفاهيم المحوريَّة التي لا يستغنى الفقيه ولا عالم الاجتماعيّات عن معرفتها والإلمام بحقائقها، وهذه المفاهيم تمثّل نماذج أساسيّة وأمثلة لإعداد سلسلة "المفاهيم القرآنيّة" التي تعتزم جامعة قرطبة إصدارها، وذلك تلافيًا لما نراه في الساحة الثقافيّة من تساهل في استعمال وتداول هذه المفاهيم، والتعامل معها بنحو ما يتعامل الناس به مع الألقاب والأسماء والمصطلحات، فهي عمل نموذجيّ نأمل أن يكون مرشدًا لعمليات صياغة المفاهيم وتداولها.

والله وليّ التوفيق.

الناشر